زيـــــــــــنـــــة

ترنيمات للوجع

يعزفها

السـيد حنفي

إهـــــــــــــــداء

إلـــى.. زينة..

متى ستنظرين إلى المرآة..

لترين عينيك البنيتين

تقطران أشعارا مصفدة

وقمرا مخنوقا

وشاعرا مقتولا.. ؟

يمتد الطريق أكثر مما ينبغي للمرء أن يسير فيه.. أكثر من نهاية الإبصار يمتد.. رمز بغيض للرحيل، ولا ينتهي عليه الترحال..
طويل.. أطول من العمر الذي يحبو خلسة، ويجرجر خلفه الليالي، لينحصر بين الأيام والجسد..
تعربد اللحظات في تكويني.. تهديني الاغتراب، الذي يهوي على رأسي كسياط الأماني المتداعية..
الوهن يشل خطواتي، والارتعاش.. ربما لأن خطواتي لا تهدف إلى شئ، لا تصبو لغاية.. وربما لأنها هاربة من كل شئ، يائسة من جدواها.. وربما لأني لم أعد أرغب في شئ، بعد ما تساوت كل الأشياء..
أليست كل الأشياء تورث الألم..؟
وأنا ما عاد عندي مكان للألم.. طفح الوجع من داخل روحي على جسدي، فترنمت به..

على إيقاع خطواتي المضطربة، أنفاسي اللاهثة، اضطرابات خواطري وأفكاري.. أنشد للوجع ترنيمات أكثر إيلاما من صوت حبيبتي الذي اتهمني بالغباء لأنني لم أستطع النفاذ إلى تجويفها، لأهدهد روحها.. !
وهي في مكمنها تداعب قطتها بدخان السجائر، تغمض عينيها ترقب الأيام وهي تعربد بين أشلاء روحي..
في أول لقاء، نام كفها بين كفي، ركعت شفتاي لتطبع أول قبلة على ظهر كفيها..
في هذا اليوم كان مسموحا للآمال أن تنمو لتطاول السماء، وتعلو..
في هذا اليوم سخرنا من الخريف، وأوراقه الذابلة، افترشنا جريدة الصباح فوق المقعد الحجري، جلسنا فوق أخبار الحياة، لنحكي عن ابتسامة ستأتينا غدا..
لم أستطع أن أنظر إلى عينيها، ولا إلى وجهها المتورد، كان ألم الأمس الذي تولى، مازال يهطل من حدقتيها..
أخرجت لها طفلي القديم يروي لها أحاديث النبت الأول في بلاد الملح، الذي كان يعيش الظلام في الظلام، وسط الروائح العطنة، والأرض الرطبة، وطعم الملح الذي يسيطر على كل شئ..

كم وددت أن أحتويها، أن آخذها إلى مواطن الجمال.. أعلمها الغناء وأناشيد الهوى..
كانت تدعي أن الغناء يزيد آلامها.. فطنت أن ذاكرتها تمتلئ بوجوه كثيرة.. رغم ارتعاش كفها بين يدي، وتصبب عرقها، الذي كان يوحي بأنها تمارس الهوى لأول مرة.. !
هل كانت تتقن الخداع إلى هذا الحد.. ؟
أم أنا القادم من مدينة الملح، لا أعرف أصول لعبة الهوى، كما تمارسها النساء في المدن التي يتوالى عليها الشمس، القمر، النهار، الليل، الضياء، الظلام.. ؟
أنا مازلت حتى الآن أجهل كيف يجتمع كل هذا النقاء مع هذا الخداع في قلب واحد.. ؟
أهكذا هي النساء.. ؟
فما هو الحب إذن.. ؟ ما هو الإنسان.. ؟
ما هذه القيم التي يرفع البشر شعاراتها.. ما قيمتها.. ؟
حائر أنا بين تلك المتناقضات، وحائر أيضا في فهم لغة البشر الذين فررت إليهم من مدينتي، لأعيش بينهم، أنعم بالضياء، بروائح الأشياء، بتعدد الألوان..
حائر أيضا لهذا الطريق الذي أدب عليه بخطوات يقتلها الوهن، والذي أظنه لن ينتهي إلا بنهاية العمر..وأنا لا أدري حتى كيف ينتهي العمر..

سمعت من يتنفس الصمت خلف كومة من الرمال المصبوغة بضياء الشمس الغاربة.. امرأة ترقص بين أكفان معلقة على الفراغ، رجل يجلس مقرفصا، ترتمي نظراته على خطوط متعرجة، متداخلة، يرسمها بعناية على الرمال..
وجدتني بينهما..
بين امرأة بلا ملامح، ترقص كأنها تزاول طقوسا لصلاة غريبة، وبين (آخر) يداعب الخيوط على الرمال، فتتشكل كالوهم المستحيل.. دعوتهما لمواصلة الرحيل..
نظرت المرأة نحو (الآخر)، ضحكت ساخرة، بينما جن جنونه حين رآني أبتسم.. سألتهما عن جدوى البقاء في مكان بلا هوية.. أجابت المرأة وهي تزاول رقصتها الغريبة.. :

- لا علاقة لنا بالراحلين، ولا بالقادمين، ولا بك.. امضي لشأنك..
- لكن............
- أنت هكذا تستنزف طاقتنا.. ألا تدري أين أنت.. ؟
- لا.. أنا فقط أبغي..............
- هنا مبتغى كل هارب من أي شئ..

قديما كنت أبغي أن أسمع اليمام يهدل حرا، يسبح تحت السماء، أو فوقها كما يشاء، دون خوف..
هل من حقي الآن أن أبتغي شئ، أنا فاقد الإرادة، مكبل بالأمنيات المنتحرة، بالأحلام التي تحكمها الكوابيس، وصدى الأمسيات الخالية من النغم، من إيقاع الخطوات الراقصة، من حنين العشق الصادق..
دنوت من (الآخر).. تأملت الخطوط المرسومة أمامه على الرمال، لا يمل من النظر إليها بشغف، كأنما يريد أن يحتويها بين أضلعه، أو في قاع عينيه..
- ما هذا الذي تنظر إليه.. ؟
تخترقني نظراته، كأنه يتجول بداخلي، يمسني بيد متجعدة، مرتعشة، يحدثني كأنه يبكي:
- أنا لا أنظر إليه.. أنا بداخله..
- ما هذا.. ؟
- ألا تراه.. ! قطار.. قطاري.. أتركب معي.. ؟
المرأة ترقص، ترفع يديها كأنما تناجي خيوط الشمس التي بدأت تنحدر خلف الغياب، تتثنى، كأنما تغازل مشاعر سحقت تحت أقدام الماضي، ودفنت في طيات الذاكرة.. سألتني :
- من أين أنت قادم.. ؟
- من حيث لا أحب..
- إلى أين تود أن تذهب.. ؟
- لا أدري.. وأنت.. ؟
- أنا.. !
تركتني ساخرة لتواصل رقصتها في فراغ اليأس من جدوى الوجود..
يشعرني الوقت المتوقف بالملل، يقذفني في وجه المدى موجوعا..
- ماذا تبغي.. ؟
يلقيني سؤال المرأة عند ارتجافة الأكفان المعلقة على الفراغ، تدور راقصة، كأنما تناشد القمر أن يهبها نصفه المتبقي.. ألتصق بالأحلام.. أقبض على وهم بلون البحر الهادر، يلهمني الحلم بريق الرؤى، أخدش زجاج الذكرى.. أشتاق شذى القرنفل من بين شفتي حبيبتي، دخان سجائرها، قطرات المياه التي سكبتها يوما من شفتيها في فمي..
- يوجعني صمتك المتشح بالآمال القتيلة..
- ماذا تريدين.. ؟
فرت المرأة من صرختي، واصلت رقصتها واجمة، وأنا أتناثر كغبار التاريخ على رأس الكلمات.. تنهار الذكرى تحت أجنحة الفراشات المتساقطة في لهيب النشوة.. تمطر الغيوم جدبا، يختلط بالصمت.. تنهار الرؤى..

(الآخر) يقترب من خلف الأكفان المعلقة على قواعد الصمت، يهمس كأنه يحادث نفسه:
- حين يقف القطار، ستكون في انتظاري حبيبة، تحتويني بعينين بنيتين.. صدرها يزينه نجمان، أحدهما يحملني إلى ما بعد جاذبية الأرض اللعينة، والآخر ينير الليالي بدفء الوصال..
- أنت تركب الوهم..
انبثقت من ملامحه رياح هزت الكلمات في حلقي.. صرخ ساخرا.. :

- أخبرني إذن أنت يا من تعيش الحقيقة عن ترحالك.. لماذا فررت من مقامك الذي أنبتوك فيه ؟ أين تبغي أن يستقر بك الرحيل ؟ لماذا ترتدي أجولة التاريخ المزينة بالزيف ؟ ما هذه الأشعار التي تختزنها في جوفك بطعم المرار ؟ وتلك الحكايات عن سيوف القهر، والقتل، والكذب، والضلال ؟
أتظن أني لا أعرفك.. لقد تجولت في تجويفك كثيرا، وأنت تنظر باشتهاء عفن لتلك العاهرة التي بدون ملامح، وهي تزاول رقصتها التي توحي بوهم قداستها، فوق رمال تئن من حملها..
والآن.. هل تستطيع أن تخبرني عن حقيقة واحدة لا تناقضها حقيقة أخرى.. ؟
- الحقيقة دائما نسبية..
- أغرب إذن من أمامي.. وجودك ملقى هنا بدون تبرير، كأنك من العدم انبثقت، والى العدم يحبو وجودك..

نصاله تواصل تمزيقها في روحي، أفقد القدرة على التواصل معه، كأني جسد أجوف، ملأه هذا (الآخر) بالصمت..

- لماذا تغرق في الصمت الأبله.. ؟ لقد تغاضيت كثيرا عن ضخامة جسدك، ولونك الأزرق المنفر، ودمامة ملامحك.. لكني أبدا لا أستطيع التغاضي عن سخريتك من قطاري، من الأمل الوحيد المتبقي من الماضي الأسطوري للحضارات المقهورة..

كأنه يمارس على روحي نفس الملحمة المملة، لعمليات الإبادة المقدسة..

أنفلت من ثقوب الأحلام الراقدة في جوفي كالخطيئة، تتساقط حولي الغيوم كالرماد، أتدلى كالقناديل من شرفات الصمت، يلفني غبار التردد، يقذفني في وجه الجنون..
أتحسس البثور التي تغطي وجهي، أتذكر قبح ملامحي، بشرة زرقاء، أنف ضخم، شفتان غليظتان، عينان مستديرتان، جسد ضخم مخيف.. كأني هجين إنسان مع عفريت.. شيطان..

تهاويت تحت قدم المرأة التي تراقص أكفان الصمت والخواء.. ابتسمت حين رأتني أسفل قدميها، جلست أمامي، تغني كأنها تهمس للغيب في عيني.. :

الحقيقة.. ؟ الحقيقة أننا هنا..

بين جدران لا تنهار لأنها ليست مقامة..

لكنها تحمينا من غدر الفكر، زيف الإحساس..

الحقيقة.. الحقيقة أننا هنا..

بين أكفان معلقة على دوائر الوهم الغبي..

نعبث بوهن اللحظات، نسبح في حمى الكلمات..

ألا يكفي أننا هنا.. ؟

نعيش الوهم بكل انطلاقات الرؤى

في سجن الهذيان

نعانق الخيال، نرتع في الأحلام..

الحقيقة.. ؟

الحقيقة هنا تنبت من بذور الأوهام..

ضممتها بعد أن تحررت من مشاعري..

تجوس في دمي الأحلام كالجحيم.. كأنها نقمة الموت الذي يغتال البدايات، أنا المقتول وجعا، المنسحق تحت همسات المطر،وذكريات الألم، تحوطني توهة أسرار الحبيبة، أنصهر تحت سماء تتشقق من سطوتها، غيها، غوايتها.. تغشاني الذكريات بالدمع، أشتهي الانفلات من تحت نصف القمر المختنق بالبكاء..
فليشتهيني الموت.. لكن ليس بين ذراعيك..

يطاردني الفزع حين أرى جثتي تتوسد رموشك، وأنت ساقطة بين عهر الكلمات، دعارة الفكر.. ترتدين رسما فصيحا للخطيئة، ظلك يتوارى خجلا، كتلك القوافي التي فرت حين جاورت اسمك، وسقطت من بين الكلمات لتخنق الحروف، تهديني صمت الأكفان..

أهاجر إلى طعم السكات، أكابد للارتخاء على أجنحة الفراشات، تتغلق أناملي على قبلة تخبئ سر حبي، خجلي حين أراك تعبثين بمزيج مكروه من رائحة الزمن المتواري في ظلامك..

آه من ذكراك والضياع.. أنهكني الركض خلف أسرارك وأوهامك.. حتى عرفت أنك صورة لكل زيف الوجود، نبذت وجودي.. لا أبغيه، لا أبغي الكلمات التي تزين الأحلام برؤى كأجنحة الفراشات.. فررت من كل شئ.. لكني ما استطعت أن أفر من جسدي المشحون ببؤس الصرخات..

انتبهت إلى (الآخر) يعيد تشكيل خطوطه على الرمال شاردا.. جففت دموعي، قلت :

- الظلام يحبو، وال...............

تفرق ظله في أنحاء شتى وهو يصرخ:

- لا شأن لك بي، لا شأن لك بالظلام، لماذا أنت كثير الهذيان..؟ كل من أتى إلى هنا سأل سؤالا واحد، ثم هرول وقال إني مجنون.. ما الذي يستبقيك هنا ؟ لماذا لا تغرب كتلك الشمس التي اختارت مدار الهذيان طريقا لها، كلما أشرقت أسلمها للمغيب..
هيا أغرب أنت أيضا، ليتك تأخذ معك هذه العاهرة التي مللت وجودها، رقصها، غناءها.. أريد أن أحيا الصمت لحظة.. أليس لي الحق في وجودي، أقصد في صمتي..؟

اقتربت المرأة، جلست بين ذراعي، قالت بهدوء:

- ماذا تريد.. ؟
- لا شئ، ولكن........
- اسمعني جيدا.. أنا وهذا المعتوه، ليس لنا مأوى غير هذا المكان، ليس لنا أن نستبدله، أو نسير معك، أو نفعل أي شئ غير أن أكمل رقصتي، ويرتاد هو بقطاره الوهمي أفق خياله المريض..
- كم مضى عليكما في هذا المكان.. ؟
- الزمان هنا لا يمضي، كل شئ متوقف، إلا تلك الشمس التي تولت، ونصف القمر الذي يبكي دوما..
- هذه الطرق المتشعبة.. إلى أين تؤدي.. ؟
- كل الطرق تؤدي إلى هنا.. هنا الانتهاء المر.. والآن.. إما أن تذهب في إحدى هذه الطرق، كما فعل كل من جاء قبلك، أو تجلس ساكنا..
- إلى أين ذهبوا.. ؟
- كل من ذهب في طريق عاد من طريق آخر، بعضهم يدخل الكفن المعلق، بأسراره صامتا كالصخر.. والبعض يحكي ما يريد حتى ينتشي بالانتهاء قبل أن يسكن كفنه.. هنا نهاية الطرق، نهاية كل شئ.. فإما أن تجرب طريقا منها، أو تسكن كفنا، أو تلتزم الصمت..

للمرة الأولى منذ مولدي أشعر أن من حقي الاختيار.. استأنست بهما.. جلست ساكنا ، أتنفس الصمت..

كل ما أبتغيه أن يستلب أحدهم عيني، فلا أرى الوجوه التي تقتل الآمال، التي تطاردني إلى هنا، على هامش الحياة، بين الموت والموت..

كل ما أبتغيه صدر أم أبكي عليه، قبلة على جبيني تمنحني بعض الدفء، يد تمسح على رأسي، فرحة تدخلني ولا تسقط من ثقوب روحي، فيبتلعها الغياب..

كيف كنت ترصدين انفلاتي من أحلامك، وأنت لا تتألمين حين يسحقني رحيلك المتوالي، ولا تدمعين حين يلفظني الشعر وحيدا على قافية الحد الفاصل بين الحياة.. وبينك..
أكل ما تنامى بين أعضائنا كان مجرد رغبات.. ؟
هل كنت زيفا.. وهما.. ؟
هل كنا نعيش السراب لننجب اللحظات الخادعة، أو تنجبنا، لتبذر فينا بذور الانتماء للشقاء، فتنبت وجعا يتراقص على إيقاع الأنين، يترنم بالعذاب، حتى نشتهي الانفلات من مغاليق الحياة، إلى العدم..
قد كفرت بإشراق وجهك.. بقيودك المزينة بعقود الفل، بشفتيك، بقبلات عشقك، بكلماتك المنسابة من دهاليز العتمة، بعينيك البنيتين، بهمسك المجنون بالاشتهاء، باللحظة التي اشتاق فيها قلبي رؤياك..
سأرقص في الفراغ وحدي، سأطأ كل الآمال المنهزمة، سأمزق جفون الليل، سألعن ذاكرتي إن احتوت وجهك، سأحتضن الفناء مادام بعيدا عن صدرك..
لكني أبدا لن أحبك.. أبدا
احتسيت روحي على مشارف انتحار الذكرى.. وليت وجهي شطر عيون الليل، متلمسا مشاعري الورقية..

نهض (الآخر)، هرول فوق السيقان الملقاة بغير ترتيب.. وضع وجهه في وجهي، صرخ:
- هذا القطار لابد وأن يقف، نعم لا بد وأن يقف.. لقد سئمت اهتزازاته.. تلك التي تسقط الآلام من قلبي إلى قدمي.. تنبت في القلب أوجاعا أخرى أشد إيلام..
لقد سئمت رجرجة جسدي داخل هذا ال....................
وضع وجهه في اتجاه الغياب.. توحد مع ظله المنفي عند حدود الأرق.. همس :
- أتدري.. هذا القطار يذكرني برحم أمي..كان ينقبض وأنا بداخله، حتى أكاد أن أختنق، ذات يوم انهالت بقبضتها على بطنها تلعن وجودي، آلمتني، صرخت، ظللت أصرخ حتى انزلقت منها وفررت هاربا.. عبر بي التجوال أنحاء الحياة.. لم أجد رحما أكمل فيه تكويني.. لكن....
لكني ضقت بهذا القطار الذي لا يقف.. لكن....
لكن لا بد له وأن يقف.. أليس كذلك... ؟
نظرت في عينيه بلا مبالاة، ارتجف قليلا، حاول التماسك والتودد، همس.. :
- معك سيجارة.. ؟
أشحت عنه بوجهي.. صرخ :
- هذا القطار لا بد وأن يقف.. ان لم يقف، سألقيك من نافذته..
آلمني بكاءه.. ضممته إلى صدري.. سألته:
- من أنت.. ؟
الشحوب الذي يأكل وجهه يعادل في الحياة وجعي..
- أنا.. ؟ أنا (الآخر) كما تدعوني في مخيلتك، لقد أحببت هذا الاسم، رغم أني لا أدري جدوى الأسماء.. تلك التي تفرق بين البشر، تضع قيودا على الذات، وعلى الروح..
- كيف تعرف ما يدور بداخلي.. ؟
- دائما الإنسان في حاجة إلى (آخر) ليكشف له عن ذاته..
- من أين أتيت.. ؟
- من قصة حب.. لا تسخر مني.. لقد كنت أعيش الحياة ارتجالا، لا أعبأ بسريان الزمن، أحيا بين الحانات، كؤوس الخمر، أجساد النساء..
عربيد.. مجرد عربيد، يعيش في قاع الحياة.. كل ما أهواه، وما أبتغيه الشعر، الموسيقى، الألوان، الخمر، النساء.. ولا آمال.. حتى قابلت يوما امرأة كما الوهم الجميل.. كهمس العطر من فم الربيع.سألتني، ماذا تبغي.. ؟ فقط، بدون مبرر وجدتني ملتصقا بها.. أحلامها، أوهامها، آلامها، آمالها، ثم..... ثم....
ثم ركبت قطارا ورحلت، ورحلت أنا أيضا.. ركبت كل قطارات الحياة أبحث عنها.. ما وجدتها..
- روايتك مبهمة..
هب كالعاصفة، صرخ حتى اهتزت الأكفان المعلقة على الخواء..

- ماذا تريد مني.. ؟ ماذا تريد أن أحكي لك.. أنا.. أنا لست مادة للسمر تلهو بحديثي.. ذاكرتي لي أنا وحدي.....

ماذا.. ماذا أقول لك عنها.. كانت امرأة خادعة، كانت خائنة.. كانت أطهر نساء الأرض.. أرق من النسيم، أندى من المطر، أجمل من الشفق.. مدمرة للروح، مرهقة للمشاعر، قاتلة للأماني، تتراءى على كفيها الأحلام زهورا، تسيل الموسيقى من بين شفتيها اشتهاء، على وجنتيها تتراقص الآمال.. كانت امرأة تجتمع فيها كل متناقضات الحياة.. خليط عجيب من طين الأرض العفن، وطهر السماء..

يدب بقدميه كمحاولة لتمزيق كل الروابط التي بينه وبين الحياة..

تتوقف اللحظات عند حدود العدم، يغرق في توحش الهواجس، بين الأفكار التي ودعها اليقين.. على مزالق الوهم ينحدر.. تستوعبه الأحلام، تراقصه الكوابيس..

نهض يترنح بين الأكفان المعلقة على اللاشئ.. نظر باشتهاء إلى المرأة الراقصة.. اقترب منها.. دفعته.. جاءني حبوا..همس في أذني:

- لا تصدق أني أعيش على ذكرى امرأة.. أو أحتفظ بهواها.. كل امرأة ترحل من بين ذراعي، ترحل معها ذكراها.. فان لم تأخذها، ألقيتها في جوف امرأة أخرى.. في كل مرة ترحل امرأة من حياتي أشعر أني ونبت جديد، أكتب الشعر، أرسم الألوان، يصدح غنائي، أستقي من الموسيقى العطر وكذا من غروب الشمس.. إياك أن تعتقد أن امرأة خدعتني فجئت هنا يائسا، عند نبع الهذيان هذا.. النساء كثيرات، شهيات.. تعشقني، كنت أغدق عليهن غراما.. لكن تلك الغبية لم تدرك أبدا أني أحببتها حقا.. أنا.. أنا..

سأقول لك الحقيقة.. لقد رفضت أن أموت بين أحضان النساء.. فررت إلى هنا.. هنا نبع الهذيان، مملكة الأكفان المعلقة، ضيعة الهلاوس.. أو كما تسميها تلك المرأة الراقصة التي بلا ملامح (الانتهاء المر).. أرجوك صدق تلك الحقيقة الزائفة.. كما صدقت من قبل زيف التاريخ الذي كتبه المنتصرون بحد السيف..

يبكي.. تطفو آلامه على صمت المكان.. سقطت من أعماقي.. تواريت خجلا خلف اللاشئ..

لا حاجة للوعي حين تضيع الأسئلة.. لا حاجة للشمس أن تنبذ جسدي.. فهو مرهون للموت سلفا..

كنت أتمنى أن أهدي (الآخر) زهرة.. أن أحتويه بدفء الإنسان.. لكني محروما من العطاء، مبتلى بترانيم الوجع.. أغني الآلام بعشق، أسكب دموعي ألحانا.. أكتب حروف الأيام التي تمرق من بين طيات العمر إلى الانتهاء..

هنا.. عند آخر حدود الحياة.. تتراص الأكفان كنهايات لعمر بائد، معلقة على فراغ الحياة.. كأحلام منزوعة قهرا من رأس شاعر عاشق..

تترنح الأكفان بين دوائر الوهم الشقي، كاليمامات التي أغتصبت بكارتها، خاوية كالخرائب، ملتوية كعلامات استفهام تسقط عند حدودها الآمال..

تتشكل حروفنا بلغة السكات، تعزف الصمت على أوتار الألم، والمرأة تحوم بنظراتها حول الفراغ، تعبث أناملها على وجه الغمام، تنزع الألوان من ريشة النسيان..

تقترب من ظلها، تبذر عريها على صدى دقات الدفوف الوهمية، تترنم بأغنية كالحلم، تتعاطف الأنغام مع لون عينيها.. فتصدح..

توقفت..تركت ظلها الذي كانت تراقصه، وضعت وجهها في وجهي.. ألقت سؤالها كالقئ.. :

- ما جدوى امتزاج العطور بهمسات النسيم.. ؟ لماذا لا نزاول طقوسا تعيد للأشياء أسمائها.. ؟

نهض (الآخر) فزعا، صرخ في وجهي، في وجهها.. :

- إياك أن تقتربي من قطاري.. لقد رسمته على أرض هذا السجن اللعين بأمل أن يقف يوما، وأهبط منه، أجد حبيبتي تفتح ذراعيها بدفء الليالي التي ولت، ولم أدركها.. دعي قطاري.. لا أريد له مسمى آخر.. أنا أتجول به، بداخله كما أشاء.. أنا فقط سئمت رجرجة جسدي داخله.. لا تسمينه سجنا..
- سجن.. !
- سجن.. !
- من قال هذا اللفظ اللعين.. ؟ أنتما.. أنتما لا تدركان حقيقة الأشياء، أنتما.. أنتما تجهلان قيمة الحروف التي تشكل الأسماء، وترسم معنى للأمل..

- أي أمل في هذه الحياة تشد إليه الرحال.. ؟
- أصمتي أيتها الغانية.. منذ أن رأيتك بدون ملامح، والأمل يتسرب من بين أناملي، يوما سأضعك حتما على قضبان قطاري.. سأمزقك، سأنثر أشلائك بين أنياب الزمان القاهر لكل الأحلام..

انكمش في ركن بجوار قدمي، نظراته تخترق المرأة التي أغمضت جفنيها، كأنها تستجمع أطراف الانتشاء.. ترفع يديها في تبتل، تبدأ في مزاولة رقصتها..
جاثية على ركبتيها، وجهها يعانق شحوب السماء، تدور وسط دوائر الفراغ المبهمة..

غارق أنا في توحش اللحظة، بين أجولة الزمن المهترئة، أتدحرج وسط شوارع تمتلئ بالأكاذيب، بتعدد الألوان.. تتزين الطرق بالخراب، تفر السحب من على وجه السماء.. ينبض القلب عصارة الظلام، يلفظ القبلات المرتجفة، يلعن حروف العشق التي كتبتها على جبين امرأة، تبذر عريها على ضفاف الكلمات، تلتف الحروف حول جسدها المتوثب للعناق، وميض عينيها يعكس شبق البراري لرشفة حب..
حين احتوتها أشعاري، أنبت غرامي في جوفها رغبة عارمة، لقتل ذكرياتها السابقة.. مزقت رسائل عشاقها، قصائدهم.. ثم بكت ندما، ارتدت ثياب الحكمة والطهر المزعوم، ناولتني كأسها المترع بالغرام، بشظايا اللهاث خلف الاشتهاء..
كيف أحلق في السماء كالفراشات حين أحتسي هذا المزيج من رأس فارغة من الحب.. ؟
كانت عيناها ترتعشان، حين ترى المطر يهطل خلف زجاج نافذتها، سمكتها الوحيدة تدور في إنائها بلا هدف.. قطتها البلهاء نائمة على زهوري، عطرها ساكن حواس يقظتي..
مدت يدها لتمس قطرات المطر، اصطدمت بوجهي العابر قارات الخوف، المصطبغ بغبار الرحيل.. أسدلت ستائر أنوثتها، غرقت ارتجافاتي في شهيقها، قذفت ألحاني بين ثدييها، انصعق جسدها، تهاوت في ضعف اللحظة.. ثم تنمرت، أرسلت قبضاتها متوالية إلى صدري تمزقه، أخرجت أحشائي، ألقتها إلى قطتها وهي تبكي.. ماتت سمكتها رعبا..
ثم ابتسمت، ونصبت حدود الفراق.. أقصد الاكتفاء..

تزحف المرأة حتى تلتصق بأقدام الظلام.. وجهها مدثر بالعرق.. يغمر همسها روحي، يسبح في شراييني.. يغمض الهواء عيني، أنام منكسرا على صدرها..
يفوح الهواء بالموت، بعتمة الألحان.. أستسلم للوهن المخلوط بخلايا جلدي.. تهمس.. :
- من زمن بعيد كنت أود أن أصطاد الشمس بأناملي..

يرتمي ظلها على الأكفان كثور شبق.. واصلت همسها.. :
- لفظتني الحياة وحيدة على شاطئ العراة.. أمسكت منديلا من ورق التوت، لوحت به للعذارى، وللحياة..
- كل التوسلات لن تجدي لتغيير مسمى الأشياء..
- كدت أستريح من ألم الذكرى..
- طويل هو الانتظار..
- نعم.. نعم.. طويل، طويييييل.. وفي سقوطي الأخير أردت لروحي الفرار إلى هباء الانطلاق..

أشحت عنها بوجهي إلى البعد المترامي.. تكورت في بؤرة اللحظة، تحاول أن تغزل من خيوط الظلام حكايا زائفة عن زمن الطهر.. !
- ماذا تفعل.. ؟
- أمزق الصفحات، وكل ما كتبت عن الهوى أحفظه في كأس من الخمر، وحين أتجرعه، سأراقصك على حافة ذكرى لم تكن..
- حفنة من الأحلام لا تكفي لإقامة حياة..
- حياتك بصقة تطأها أقدام الحياة..
- وحدتي باردة.. كأرملة في سن المراهقة، تزوجت يوما واحدا، ثم باتت كل ليلة تنظر إلى دماء بكارتها في أسى..

- أنت ككل النساء اللاتي تتطهرن من أنفاسي قبل النوم في أحضان أزواجهن الأغبياء..

تحطمت بسمتها على صخرة عارية من الضوء، صنعت من شجوني مظلة تقيني نظراتها الغاضبة..
نامت تتخفى بجلال الموت، متشحة بالصمت، تتساقط دموعها كشلال ضوء يغمر النفس بالأسى، وشفاه الحنين تمتلئ بالرضاب المر، بالصمت المفرد، بأبجديات السقوط، تغني لأعناق أزهار البنفسج التي كسرت عنوة، حين انحنت على صدري لتهمس سر امتزاج الأحزان بصدأ الليالي المستوحشة في الظلام..
أدلف إلى شرود الروح.. أحاول نسج أحلامي.. بيد أن الليل الذي يحتفي في جسدي يعجن أضلعي، ينزع قلبي المرتعش، يرسم الأيام كلوحة طافية على أمواج الذكرى..
يتوغل في عيني الخوف، يرصدني الظلام عاجزا عن الفرار، أسأله عن الضوء، كيف يحلق في سماء الفزع.. يلطمني... أنتبه.. أنتبه حتى الموت..

اقترب (الآخر) مترنحا، كأنما أسكره الزمن المتوقف.. أشار إلى الأكفان المعلقة على حطام الذكرى المتوارية في عمق الذات..

- هيا أيتها الغانية.. ادخلي كفنك.. دعينا والصمت..

غمامة بيضاء تلتف حولنا، تتقشع عن بعض العازفين الذين فقدوا ملامحهم، وتمزقت أوتارهم.. يغنون الحرف على أوتار الصمت، تنساب أغانيهم مبتورة..
أحمل هزيمتي، وترنيمات وجعي.. ألملم شتات ملامحها من على جدران ذاكرتي..تنعكس من حدقتي مرئيات العمر الآفل..
كنا اثنين.لا. .. كانت واحدة..
وكنت أبحث في السماء عن لمسة مشحونة بعطف الحياة.. حتى وجدت القمر يفترش عشب ضفتيها.. اتقد بركان شوقي، القاني في متاهة الومضة.. صرت شعاعا يركع على شفتيها..
كانت واحدة.. صرت واحدها..

***

وجوه العازفين تتمزق في الظلام من الظلام.. يتدلى الصمت من أوتارهم الممزقة.. تترنح أفكارهم غير مبالية بالموت الذي يتراقص فوق جماجمهم، ولا بالألحان التي تتحشرج بين جفون الصمت..
يرقد العازفون على رؤوسهم الكبيرة جدا، الفارغة جدا، المنهزمة جدا، جدا....... مثلي..
يخرج الليل من أنفاسهم، يهديهم وترا مفقودا يئن تراتيل الألم، يغني ترنيمات الوجع..
تهتز النجوم، تسقط في آذانهم، يترنحون، يلفهم الفزع، يطويهم بين دفاتر الأماكن المنهزمة، والأنفاس المحترقة، واللحظات المصحوبة بأناشيد التمزقات..
يطلقون صرخة.. يرقص على ايقاعها الفراغ..
تنشطر روحي نصفين.. نصف يخترق حجب المواقيت، ويتشكل بملامحها.. ونصف عن كثب يرقبها..
كانت تعشق رائحة المطر، اكتمال البدر، طعم القرنفل.. كانت تحب قبلتي على كفها حيث ينام السوسن..
اقترب (الآخر).. ناولني كأسا ملئ بالهواء.. همس :

- تجرع الفراغ، سيورثك الهذيان الجميل..

أدخلت رأسي في الكأس الخاوي.. تساقطت الحروف من بين كلماتي.. انطلقت من حيز كينونتي، أرقب بصيصا من ضوء يتسلل من بين الأكفان المتراصة على هيئة علامة استفهام بحجم الوعي المفقود، بينما يلوح كفن مفرد، أسود اللون، يتأرجح كنقطة ساقطة من آخر علامة للتعجب.. سألته:

- ترى كم يلزم من الآهات لشق أستار الليل.. ؟
- كيف كنتما.. ؟

- كان طريقنا يمر بين اللغة والموت.. عند منعطف للقاء الغمام بالشموس الغاربة.. وكنا نرسم سويا بـلادا من الرؤى، مطرزة بالوهم.. قلبان ينبضان حروف العشق..
آه.. ماذا أروي لك عن الأغاني التي كانت تقطن أحلامنا..
كانت واحدة، وكنت واحدها.. أستبقيها حرفا له معنى الحياة.. وفي لحظة واحدة....... اختفت.. لمـاذا.. ؟
أين.. ؟ لا أدري..
أشتاق إليها كثيرا.. أود أن أبكي بين كفيها.. أود أن......
- لغة البكاء غير عصرية..
- كأس الفراغ أيضا لم يعد يورث الهذيان..

يتوغل الحطام في تكويني، ينثر على أشلائي رماد الانتهاء..
الدخان يغمر المكان كالأشباح المتهاوية من فم الجحيم.. أقاوم الصمت بالأنين، وبالموسيقى الجنائزية المنبعثة من صفير العازفين الذين نهضوا، وأحاطوا بي وهم يصفقون على وجوههم..
أصرخ........ أصرخ........... أصرخ بصوت الرعب الذي تعدى حدود الجراح.. أبحث عن نبـت الألـم، أفتش عن اللحن الذي تراقص على إيقاعه قلبينا.. أبحث عن وجه حبيبة كان يوما قبلتي..

***

المرأة ترتمي على الأرض بلا حراك، كأنما أنهك رقصها الأمل المتواري خلف نصف القمر..
وأنا أبحث في صحراء روحي عن اليمامة التي كانت تسبح تحت سماء روحي..
بزغ (الآخر) من خلف الأكفان متهدما، جلس ساكنا بين المرأة وبيني.. راعني أنه بدا بدون ملامح.. هلامي الشكل.. هتفت به.. :

- ماذا حدث، كيف حدث، أين كنت.. ؟

أجابني بصوت كأنه صدى لزمن متحشرج..

- كنت أتجول بين الأكفان، أهدهد روح ساكنيها، وجدت رجلا يجلس مقرفصا، وهو يبكي.. سألته عن سبب قدومه، وبكائه.. قال انه كان وسط قوم تحكمت الخرافة من عقولهم حتى أفسدتها، محبوسون فـي نـسق مغلق دون أرواحهم.. سجنوا الأحلام حتى ضمرت.. فخرجت عليهم الأفاعي تطالبهم بـالإرث المقـدس، بالأرض التي أعطاهم إياها الرب بزعمهم..ثم طردوا قومه من أرضهم بالترويع، وبالاغتصاب، وبالقتـل، وبالنفي.. حتى حققوا الهدف الذي يزعمون أنه مقدس..
أما هو الذي تسكنه جحافل الأحلام، فقد اضطر للفرار، حين رآهم يعلقون جسده على مشنقة تتـدلى مـن لسان معبودهم، الذي كان يضحك ساخرا من أحلامه.. لكنه لم يستطع أن يفر بملامحه التي أخفوها تحـت حائطهم المقدس أيضا..
وهنا.. وجد الأكفان تأبى أن تحتويه داخلها بدون ملامح.. ظل الرجل يبكي، حتى خلعت عليه ملامحـي، ارتداها بسرعة، ودلف إلى كفنه، حتى دون أن يودعني..
- لماذا أعطيته ملامحك.. ؟
- لم تكن ملامحي على كل حال.. لقد بادلت ملامحي مع أحد الشعراء.. كان قـد أحـب امـرأة كالعـادة.. أوهمته بالعشق، أهدته عطرها، أسكرته برائحة القرنفل التي تفوح من قبلاتها، حتى بـات لا يـرى فـي الحياة غيرها..
وفي لحظة مجنونة استلت خنجرها، مزقت به كل أشعاره، وارتمت في أحضان شاعر آخر..

جن جنونه، خرج يهذي في الطرقات، يسب ويلعن كل شئ، ثم أحضر صندوقا كبيرا لمسح الأحذية كتـب عليه بخط كبير..
(أنا أكبر شاعر خدعته زينة..)

- زينة مرة أخرى.. ؟
- ماذا .. ماذا قلت.. ؟
- لا شئ.. كنت أقول لقد سمعت قصته من شعراء المقاهي..

- نعم.. نعم.. وحينما وجد أن الحياة لا تتسع لآمال الشعراء، جاء إلى هنا، يرقب الآمال المتأرجحة مع الأكفان على دوائر ذلك الوهم الغبي.. وحين أتيت أنا إلى هنا، قال لي أنه يود أن يدخل كفنه، غير أنه يخجل من ملامحه تلك التي مستها أنامل المرأة التي أحبها.. فبادلته بملامحي.. دخل كفنه راضيا مبتسما، وهو لا يعلم أن ملامحي قد شكلتها نفس المرأة التي كان يعشقها..
- ملعونة أنت يا زينة..
- ماذا.. لم أسمعك..
- أقول إنك خدعته أيضا..
- لا أظن.. على أي حال فقد استراح من ذكرى امرأة عفنة..
- ماذا تعرف عنها.. ؟
- هي امرأة لا تستطيع إلا أن تحبها.. تستطيع أن تخدع الخداع ذاته..

كانت تجلس بين أحضاني عارية، وتحادث زوجها في الهاتف بدلال غريب، وأنا أفكر، وأسأل نفسي، تخدع من هذه المرأة.. ؟ أتخونني مع زوجها، أم تخون زوجها معي.. ؟

كنا نمارس الهوى يوما، حين رن الهاتف، هرعت إليه.. حادثها شاعر جنوبي، كان من عشاقها القدامى، كلمته، لاطفها، غازلها، ثم أتت ترتدي ثوب البراءة، لتكمل معي دروس العشق والغرام، وتوهمني أنني الحب الوحيد.. الواحد المفرد.. وهي لا تعلم أن الشاعر الجنوبي كان يحكي لي عن كل همساتها، وكل كلماتها..

- احكي لي عنها.. أحب أن أعرف عنها كل شئ..
- تستطيع أن تلملم ملامحها من على وجوه الشعراء المقتولين بعشقها.. سواء بجوف هذه الأكفان، أو من سيأتي منهم ليدخل كفنه..
- احكي لي عنها المزيد..
- كانت تحادثني في الهاتف عن شكوكها لعدم اكتمال البدر، وتقول ربما أصابته الحمى التي أصابتني وأنا طفلة، أو ربما خانته النجوم، فزوجي يخونني أيضا كل يوم..

ويسترسل صوتها يطحن كل مرصود، وأنا شغوف بصورتي القديمة المعلقة على صدر حبيبتي التي أعشقها..

في يوم أحضرت الماء الدافئ، جلست تحت قدمي تغسلهما.. وبعد أن انتهت، دنست كل جسدي بقبلاتها ولعابها.. ما أثار حفيظتي حقا، قطتها البلهاء وهي تأكل الزهور التي اشتريتها بكل ما في جيبي..

فتحت يوما خزانة ملابسها، أخرجت القصائد التي كان يرسلها إليها الشعراء ممزقة.. رفعت حاجبي مندهشا، لمحت دمعة في جوف قلبها.. تيقنت أن الشاعر الجنوبي قد هجرها..

انتقاما منه ضحكت، وأضاء عريها خفوتا، وأشعلت جسدي بجسدها في تلاحم شبقي مجنون.. لكنها كانت ترتدي بنطالا محكما، وقطتها البلهاء تعبث بأصابع قدمي..

قالت لي يوما أنها استبدلت خاتم زواجها بحذاء غير جديد بالانتعال، أحضرت لها خاتمين، اقتنى كل منا واحدا، ومارسنا الهوى في ظلالهما أربعة أيام.. حين عدت إلى داري، استبدلت خاتمها ببعض السجائر، وشطيرة لحم أشهى من لحمها ذاته..

في أول تعارفنا، كانت تحادثني عبر الهاتف عن القصر المنيف الذي تقطنه، وكنت أضحك سرا..

وحين قابلتها في مسكنها المتواضع، تحت درجات الفقر، حذرتني من زوجها الذي يعمل في وظيفة خطيرة جدا.. وضحكت أنا جدا..

أقسمت لي أنها لا تملك قميص نوم، ولا ترتدي إلا البنطال المحكم على جسدها، بغرض أن لا يقترب منها زوجها الجنوبي.. ضحكت مرة أخرى.. ثم قالت لي أن زوجها لم يقترب من أنوثتها منذ خمسة عشر عاما.. ضحكت حتى الانتعاش.. وبعد أن رويت شبقي من جسدها المرمري.. ضحكت كثيرا، لأن ما لا تعرفه هي أن كل عشيقاتي كن يتحدثن مثلها، وكنت أضحك من حديثهن كلهن..

- أنت إنسان بشع..
- نعم.. أعرف.. لكن ما لا تصدقه، أنا كنت سأحبها لولا.......

- لولا ماذا.. ؟
- صدقني.. البداية كانت ترصد كل أسباب السقوط، الكذب المتبادل أعني.. ولأنها وعدتني أن أكون في حياتها الشاعر الوحيد، لكنها ما أما قرأت كتاب شاعر حقير، حتى تهاوت بين أحضانه، ولم تعبأ بمشاعري التي كنت قد بدأت أهذبها من أجلها..
- وماذا تنتظر لتدخل كفنك.. ؟
- أنتظرها أن تأتي هنا لأسألها سؤالا واحد..
- ما هو.. ؟
- لماذا..
- فقط.. ؟
- نعم فقط.. لماذا..

***

المرأة ترقص على إيقاع الضوء المتسرب من دهاليز الصمت..
وثب العازفون على أوتارهم، أهداهم الرعد الهام الإيقاع الحجري، راحوا يفتشون بين أنامل أبي الهول عن النبض المتبل برائحة المومياوات، تصدهم حواجز الهزيمة..
دائما هم مهزومون.. يعشقون الأنين على إيقاع لطم الخدود..
لم يفكروا أبدا في وصل أوتارهم المقطوعة، لم يحاولوا استبدالها بشرايينهم التي بلا جدوى..
بالتأكيد هم لم يروا زهرة اللوتس التي تنبض على ضفاف النهر المقتول، ليصنعوا من أناملهم نايات..
(الآخر) محموما امتطى القطار الذي رسمه على جدار وهمه، أصدر دقات رتيبة، تجادل نبض القلب الموجوع..
نصف القمر يدور وحيدا في ظلمة السماء، يضئ الذكرى بأوهام خادعة..
وأنا أتجول ضائعا وسط دوائر أبدية الصمت، ترتعش خطواتي على خد الظلام.. يتأرجح ندائي بين الصمت والسكون، يشق ظلام الروح الضالة وسط متاهات المدن الملتحفة بالفناء..
تتحشرج أنفاسي تحت حطامي، تغطيني صفرة الموت، ونصف القمر يحدق بنظرة ميتة في الروح المنهارة..
أتمرغ في ألمي، أهرب من تمزقاتي إلى مفترق الطرق المنتهية..
- اهتزازات القطار تخلط كل الألوان.. تثير الغبار القديم الذي يشكل ملامحنا الانهزامية، داخل إطار من الخوف..

تجتاحني الرغبة في الفرار من نظرات الرجل، الذي يركب قطار الوهم.. أفر من داخل جلدي، أترك له جسدا ينبض حياة تتزين بالخيال، يكبلني الليل بأصفاده الكئيبة، أغرق في أعماق ذاكرتي.. أسترجع النظرات التعسة، والأنشودة المنسية، والحلم الضائع، والآمال الدفينة..
أفتح للصمت أبوابا للحلم.. تنشق ستائر الذكرى الملونة ببؤس الحكايا عن الارتحال/ الاغتراب/ الحب/ الفقد/ الألم..

***

- هل أحببت.. ؟

توقفت المرأة عن رقصها حين سمعت سؤالي.. تهدمت بجواري.. ابتسمت وكأنها تلعن الابتسام..
- أووه... كثير، وكثير جدا.. حتى مللت..
- كثير.. ؟ أي حب تقصدين.. ؟
- مداعبات الأطراف، عناق الشفاه، تلاحم الأجساد، اطلاق الآهات، جحوظ العيون، التشبث حتى الذوبان، الانتهال من بحر الشهوات حتى الارتواء، ثم الارتخاء، والدخول في غيبوبة النوم خالي الوفاض.. هل هناك حب غير هذا.. ؟

نفرت نظراتي منها.. تقيأت ملامحها المبهمة..
(الآخر)يرسم دوائر متداخلة، ثم يحيد عنها بقطاره الوهمي..

الليل يتوغل في تجويف نفسي الممزقة، يغزو مدني، يستبيح شوارعي.. تنبت روحي أحلاما تغفو على صدر السهد.. أزاول وحدي طقوس الانهيار، أرافق شعاع الذكرى المتوارية خجلا، أخترق نسيج الصمت..
أنا الآتي من بلاد الملح، من حجب الضباب، إلى متاهات الغربة والاغتراب، أضم الحزن كهلا قد ضاق من كثرة تجوالي وهزائمي..
حينما ناداني الموت، أبيت أن أرتمي في أحضانه إلا بشرط أن أموت نقيا، عاريا من الأحلام، خاليا من الآمال، وأن أكف عن اللهاث خلف طيفها، وأن أنسى لون عينيها، ومذاق شفتيها، ودفء عناقها..
كان شرط لأن أموت.. أن ينتزع الموت قلبي من حبها..
تولى الموت عني بعيدا.. صامتا، عاجزا..

***

المرأة ترقص على مشارف الزمن الضائع داخل الأكفان المعلقة.. كأنها تسحق الفراغ.. أو تهرب من ملامح متلعثمة مدفونة في قاع ذاكرتها..
تهبط كظل اللعنة، تبتعد كغيمة شاردة، تختبئ بين ظلام مذعور، يرتطم فيه الصراخ بين حدود الخوف.. تلهث أنفاسها.. تجلس بين أطلال الانتظار.. بين صمتي، وبيني..
أسير في غابة اللحظة، متعمقا في الخواء الذي يمحو المعاني من الحروف، ينخر الهواء رأسي، يتسلل إلى أفكاري.. يؤلمني..
- اخترق الحب قلبي كالصرخة..
قالتها كمطرقة تهوي على القلب المنصهر..
- لم أسمع حكايتك..
- حكايتي سجينة في كهف ذاكرتي..
- أنا أيضا أحببت..
تركت رقصتها بين الأكفان.. جلست كما الوهم.. قالت.. :
- كل المعاني والمشاعر تتهاوى في جب الرغبات الرخيصة..
- أحببت امرأة شفتاها كالبحر حين ينام بين كفي السماء، عيناها بلون القهوة التي أعشق مرارتها، شعرها يصطبغ بضي البدر، كانت تنام على صدري كشمس الأصيل حين تسترخي بين أحضان الجبل..
(الآخر) يحبو حتى يلتصق بصدري، يرسم قطاره الوهمي على أرض ذكراه، يلقي عينيه الساكنتين في قلبي.. يهمس :
- هل تذوقت رائحة القرنفل من بين شفتين ترتعان بالغرام.. ؟
انفلتت مني آهة يصهرها الألم، قبضت بيدي على آخر شعاع من ضي نصف القمر، كان يريد أن يتسلل، ويتركني في ظلمة الاغتراب، في وحشة الانفراد بالنفس المحطمة..
- نعم.. كنت أرشف من شفتيها قطرات المياه، والحب، والحياة، والألم، ورائحة القرنفل.. فأنقشها على صفحة السماء يمامة بلون الغمام.. وأراقصها على إيقاع الدف، وامنحها قبلة الاشتياق.. ثم.. ثم.... لا أدري كيف انتهينا..
- إذا عرفت سر الابتداء، عرفت سر الانتهاء..
- المعرفة في ذاتها كانت ترفا لا أستطيعه..لقد كانت امرأة مغطاة بالأسرار المبهمة..كانت هي الحلم..
ومنذ اللحظة الأولى رأيتها تزين الرؤى بآمال كألوان الفراشات، ترتدي ثوبا كأشعة الشمس، حول جيدها طوق من الفل، ورأسها يزدان بتاج الياسمين، ورائحة القرنفل تفوح من بين شفتيها بركان حياة.. تتضاحك الطيور، تداعب الأزهار، تروي النسيم بعطر القبلات..
(أحبك) هكذا سمعتها تغني..
ثم وجدتني مطرودا من حلمها، خرجت ملعونا من صدرها، من بين ضلوعها، سقطت على أرض بوراء، فنسجت من أوهامي شرنقة تكورت داخلها، خنقتني الآمال، والأحلام المستحيلة..

انطلقت أبحث عن.......... عن............ عن مجرد سكن يأويني..
والظلام الذي ابتلع آخر نسمة هواء، سرق مني آخر حروف العطف، وجرجرني فأسكني الهذيان، وألقى بي في جوف عراء صامت...... صامت....... صامت كالضوضاء..
وتسألني عن (الحب).. ؟
كيف أحتويه في قلب لا يجد ضلوعا تؤويه، أو وطن ينتمي إليه، أو عشيرة تحميه من انتهاكات الدهر..

- الحب يحتضر في حضن الغياب..
- لا.. لا.. انه ينزف دمع الوجع الأعظم.. يكتب الألم بمرارة الأيام..

الحروف كأنها نعي لمن قابلتها على غير موعد، فرت كالنهار بدون وداع.. حاولت إيقاظ الأحلام الغافية على صدر السحاب، ذهبت إلى دارها.. وجدت بابها موصدا كآمال الأمس، صرخت في وجه الغياب..
أمن العدل أن لا أجد في الحياة مكانا تستقر عليه قدمي.. ؟
أمن الحق أن تخلو الأرض من قبر يؤويني.. ؟
أمن الخير أن أعيش متكفنا بالسراب، متنقلا بين سراديب الوهم.. ؟
أنا الآتي من بلاد الملح والهواء العطن.. من جوف جوف الصمت، لا أجد غير أوجاعي رفيق، ولا تؤانسني غير الحروف التي لا تستطيع نظم قصيدة عشق..
قد ضاقت خطواتي داخل حدود الزمن المترهل، وصدري ما عاد يحتمل نسمة هواء مطرزة بأريج القرنفل، وأذني ما عادت تسمع غير أنيني.. وأحلامي ضاعت، فصمتت الحكايات، وتشابهت الآلام.. وها أنا.. أترنم بوجعي، أعزف أوهامي على وتر الأمل المفقود، وأغني لحبيبة في حضن الغياب لن تعود..
انتصب (الآخر) واقفا.. حدق في الأكفان بنظرة ميتة، تحسس ملامحه الضائعة، جلس يخنقه البكاء، ارتمى على صدري منتحبا..

- من أنت يا رجل.. من أنت.. ؟
- من أنا.. ؟ سؤال جدير بالمشاهدة.. أنظر.. هل رأيت رجلا له مثل بشرتي الزرقاء، والبثور السوداء تغطي وجهه، وتجاعيد الوجع تدمر فيه كل أثر للبشرية..؟
  هل رأيت مثل هذه الملامح على غير الرجال المهزومين... ؟
  أنا.. أنا ابن بلاد الملح، والظلام، والصمت، والهواء العطن...............
- ....
- ....
- ....

حتى الأكفان احتواها الصمت..
والكون كأنه صفحة بيضاء، بلا مخلوقات، بلا ذكريات، بلا رياح، بلا حراك..
كل شئ مات.. حتى الموت..

***

صرخت المرأة لشق ستائر الذكرى.. :

- أنت تخدعنا..
- قلت الحق.. كل الحق.. لم أخدعكما..
- أين الابتداء.. ؟ من أنت.. ؟ من أين أتيت.. ؟ كيف مرت بك الحياة.. ؟ من وجهك إلى هنا.. ؟

وآلاف من علامات الاستفهام تحاصرني..

- أنا ابن بلاد الملح.. لا اسم، لا صفة، ولا جدوى لبقائي وسط حياتكم التي لا أستطيع أن أعيشها.. جئت إلى هنا ضالا.. تاهت خطواتي وسط دروب أجهل مسالكها..
- ما اسمك.. ؟
- بلادي يغمرها الصمت والظلام، فإذا انتفى النداء، انتفت الأسماء، كما قالت..

- من تلك التي قالت.. ؟
- امرأة قابلتها يوما، ولا أدري من هي..
- يبدو أنك لا تدري أي شئ..

أبحث عن ثقوب الفرار.. أحاول أن أتملص من نظراتها.. أسمع (الآخر) يحدثني من خلفي..

- لماذا توليني ظهرك.. ؟ ألا تستطيع النظر نحوي.. ؟ أتدري أننا متماثلان.. وربما يكون ذلك أسوء ما فينا.. لا يهم.. يكفي أننا سويا نعشق رائحة المطر، طعم القرنفل، سنا القمر.. وكل منا يعيش الغياب على أمل اللقاء..

كأنما ارتدى الغمام، دخل قطار وهمه، يبحث بين مقاعده عن معنى الأفول.. يحتفي به الوهم، يهديه كأس الفراغ، يتقيأ فيه هذيانه.. :

– كانت حبيبتي أجمل قصيدة عشق... أوووووه... من ذا الذي يستدعي جنون هذا الحب الآفل بي دفتي الغروب..

هل.. هل كان متاح للأيام أن تفرق بيننا هكذا بدون وداع.. ؟

أن تقتل الأحلام الغافية على صدري.. أن تحرق أشعاري.. ؟

يرشف من كأس الغرام.. يتلفت بين دوائر الوهم.. :

- أين هي.. ؟ كانت معي منذ لحظة.. !

أنا لا أؤمن بالاختفاء الغامض.. كل شئ يستمد وجوده من كيان ما، ويختفي بسبب ما..

الوجود والاختفاء متلازمان.. تماما مثل كأس الفراغ الذي يقبع على كفي، والذي لن أتجرعه.. فهو الكأس الوحيد المتبقي في ليلة اختفى فيها نصف القمر..

كانت هنا.. تجلس بجوار زجاجة الفراغ.. تشاركني خواء الحياة من الحياة.. وتتراقص على رنات صمتي، بمصاحبة الأنغام التي يعزفها من ليس لهم ملامح على أوتارهم الممزقة..

كنت أستبقيها مع آخر كأس فراغ.. !

كنت أرغب أن أكون ثلاثة.. أنا، الكأس، وهي..

الكأس يهديني الوهم الغبي، وأنا في أشد الاحتياج إليه.. وهي كان دخانها يرسم على الفراغ دوائر كالحلم..

كانت تؤانس وحدتي.. تحترق بين أناملي لتهب لي نشوة الارتقاء فوق الخيال، فأحقق في الغياب طموح الوجود..

بين دفاتري القديمة، بين كتب الأحلام والكوابيس، أشعار الغزل، ملاحم تمزيق الأجساد، سقوط الرايات، استعمار الفكر والإحساس، لم أجدها حتى بين مسام جلدي، أو بين السيوف المشرعة لتمزيق الليل الساكن تحت دثار الحياة..

أخشى أن تكون أناملي قد أحرقتها كالآمال التي كانت بداخلي..

آه.. ليتني مثلها أحترق، أصير دخانا تتنفسه الحبيبة، فأدخل صدرها مزهوا بدون خجل..

نهض واتجه نحوي.. تأملني مليا، كأنه يراني لأول مرة، همس بتردد.. :

- هل معك سيجارة أخرى.. ؟

أدرت عنه وجهي، قذفني بكأس الفراغ.. جرح الماضي، فنزفت الذكرى..

***

تدور المرأة بين الأكفان المعلقة، ترتل تعاويذ مبهمة، ترقص على الإيقاع المتساقط من تجهم وجوه العازفين..

(الآخر) لا يمل من ركوب قطاره، والتجول به بين غابات الوهم..

وأنا محموم، شارد الفكر.. لا أستطيع أن أرد نظراتي من على الأكفان، التي بدأت ترتجف، والكفن الأسود المفرد الذي بدء ينتفخ..

- أنت أكبر كاذب عرفته..

قالتها وهي تتلوى كأيام العذاب..

- أنا لم أكذب..
- بتر الحقيقة بهتان عظيم..
- عن أي شئ تبحثين في جوفي.. ؟
- أبحث عني..

كانت قد جلست بين الأكفان وبيني، انتفضت مذعورا.. صرخت.. :

- أنت.. ؟ لا.. أنا لا أعرفك.. أنا لم....... أنت لا....... أنت بدون ملامح، هلامية الشكل.. أنا.. أنا لن أسقط فريسة لغواية امرأة مرة ثانية..
- بل رأيتني.. لحظة.. وتذكر هذه اللحظة جيدا..
- أنا لا....
- انتظر.. هذا المعتوه قد أوشك أن يقتله اليأس، ويفقد قطار وهمه.. سيدخل كفنه.. أنظر كيف ترتجف الأكفان.. أنها تطلب أحدنا.. حين يرحل هذا الغبي سنبقي سويا.. سنتكاشف تماما، ونستطيع أن نحكي سويا عن ما سيكون..
- كل ما هنا (كان) لا يوجد ما سيكون..
- هناك دائما فرصة أخيرة.. لو استطعنا الحصول على نصف القمر المتبقي..
- لماذا القمر هنا نصف.. ؟
- لهذا حكاية أخرى سأحكيها فيما بعد..
- ماذا تريدين مني.. ؟
- انتظر.. فهذا المعتوه يقترب بقطاره الوهمي..

ارتمى (الآخر) بيننا.. جسده ينبض بترنيمات الوجع.. نهضت المرأة ترقص على صوت الأنين المنبعث من أنفاسه.. وهو قابع في ركن مظلم، داخل تجويف جسد مقشعر من لمسات البرد، تفترش أرضه ذكرياته الواهنة.. جلست المرأة، فجلس متنمرا.. حين رآها تبتعد بناظريها عنه، هدأ، وراح يداعب جراح الأمس..

- تقتلني المسافات التي تمتد لأكثر من حدود قدراتي..

والمرأة تراقص أحد الأكفان، ترسم عليه بأناملها قطار الوهم.. و(الآخر) في غفلته يقع بين حدقتي.. يهمس.. :

- ترى.. ماذا كان إحساس الأرض وهي تستقبل أول قطرة سكبها الغمام.. ؟

هل كانت الأرض في احتياج لاحتواء قطرة مياه.. ؟

هل أنبتت شيئا.. ؟ أم ضاعت سدى.. ؟

هل أحست الأرض بما شعرت أنا به حين اختلست أول قبلة من أول فتاة عرفتها..وتلك الارتجافة التي ألمت بجسدي حين لامست أناملي نهديها.. ؟

أم أحست بألم الصفعة التي هوت على خدي من كف مدرس الرسم، الذي اتهمني بالغباء لأني رسمت جنديا في ساحة المعركة يمسك زهرة ويبتسم.. ؟

آآآه... أرأيت النهار وهو يرتدي قناع النهاية، والشمس تعانق حواف الغياب.. ؟

أنا رأيت الأيام وهي تنبت المر، والوجع، وترويه بالآلام في قلبي.. حتى امتطى الترحال تجاعيد وجهي، وكسا ملامحي بصدأ الليالي..

ما عدت أملك غير صدق التمني، والأحلام التي تقطر من عيني..

وحين أترنم بأوجاعي، وأتجرع أكواب الفراغ والصمت، تسكرني كلماتها الغزلية القابعة في قاع ذاكرتي..

(أنا صنعت من أجلك الفصل الخامس من السنة، انه يمطر حبا دوما سيدي)

(في الليل.. أهرب بك ومعك، رغم كل من حولي، ورغما عني وعنك، فأنت سيدي وأنا جاريتك..)

هل سمعتم كيف كانت تغني لي العشق..

- من هي.. ؟
- قالت لي يوما (أنا ابنة إخناتون التائهة، أي الطرق تؤدي للخروج مني)..

تقترب منه المرأة خلسة، تلتصق به، تحتويه بذراعيها، تدفعه للانتهاء بهدوء.. يتسرب الضوء من على وجهه، تدفعه الرغبة الغبية للارتماء بين دفئها، تستلبه المرأة بنشوة الشفاه الشرهة لامتصاص الآمال..
يبرق جسدها، ينزلق عليه، تسقيه الضوء، الحلم.. يهبط بين نهديها.. تقبله دون أن يدري، ودون أن يدري تصعد به فوق الفكر، فوق الحياة.. تسقيه الكؤوس المترعة بالاغتراب.. يمتطي الوهم في متاهات اليأس..
يهدد السأم وجوده، يوشك حلمه أن يسقط.. ينفذ من شرفة الليل مسحوقا بالعجز، تتدلى صرخاته من ثقوب الوهم، تسقط الكلمات من عينيه.. يدلف سراديب الذكرى، يتحدث كغريق بين أهدابها..
بينما تتعثر اللحظات بين خيوط الفجر المتسللة من خلف الأكفان.يهمس:
– أعرف أنها قادمة.. ستقتحم عزلتي، ستهدم الأشعار التي تغلف رأسي، لألفظ حروفي فتتعلها ضاحكة، وتغلق الكفن على جسدي، وتكبل روحي بموسيقى مهملة الإيقاع..
وأنا لا أملك سوى القبوع منتظرا أن تطل ملامحها من فرجة ستحدثها في جدار لزمن مضى، وترك آثاره تجاعيد على وجهي تنهش حاضري..
كان (الآخر) يتحدث وكأنه يحتضر..

***

المرأة نهضت ترقص بلا مبالاة، كأنها لا تسمع (الآخر) وحديثه، وكأنها لا ترى دموعه تهطل من شلالات ذكراه..
تقترب من الكفن المرسوم عليه قطار الوهم.. تشقه، والبائس ينفذ إليه مستسلما، كأنه يساق بقوى لا يستطيع مقاومتها، فأذعن لها مرتجفا، والمرأة ترقص بانتشاء، تغلق على جسده الكفن، تعلقه على حلم زائل..
مشدوها تحسست وجهي.. لم أجد ملامحي.. ! سرقها.. سرقها (الآخر) ودلف إلى كفنه.. صرخت.. :
– انتظري.. قد سرق ملامحي، مكتوب عليها كلماتي، مرسوم عليها حكاياتي..
أحاول شق الكفن، تدفعني المرأة.. أهوى كطير ساقط على أوراق زهور بلهاء، تتبت في جوف السنوات العجاف..
تجلس فوق ظلي.. تهمس..
- الآن ... أنا وأنت، وميراثنا من الحياة مجموعة من الأكفان تحوي في طياتها اليأس القاتل.. وهذا الفراغ الذي يحاصرنا بالصمت المقيت.. وهؤلاء العازفين الذين فقدوا ملامحهم في زحام حياتهم، وتمزقت أوتارهم وهجرتهم الأشعار، ولم يشعر بهم أحد..

الآن.. أنا وأنت.. وشئ يشبه البقاء..
تستطيع أن تنفذ إلى تجويفي، لتراني طفلة صغيرة، تعاني أول آلامها، هجرة وتشتت من بلدها، دون سبب جنته، مجتمع لا يرحم الضعفاء، زوج عابث بكل القيم، وبكل المشاعر، وحب لم أجده رغم بحثي الدؤوب عنه..
- أنا.. أنا بدون ملامح.. سرق ملامحي ودخل كفنه..
- ومن منا لم تسرقه الأيام، والآخرون.. لقد سرقوا مشاعري، حبي، حياتي.. حتى آلامي.. تركوني مهملة، لا يعني بي أحد، لا يحسني أحد.. وأنا أتهاوى خلف حروف تسخر مني، ومن أيامي..

تتزاحم النجوم لاقتناص نصف القمر المتبقي في ظلمة السماء.. تتضح الرؤى بين أعضاء المرأة، أرى البحر يدوي على صدرها.. تنزلق خطواتها، يشملها الترنح، ينهمر الرماد من بواقي الحكايا على أسوار الصمت..
أجاهد للتحرر من زواياها المهمشة..
أطأ ظلال لوحة السماء المكتحلة برائحة الارتعاش.. تضيق رئتي بأنفاس الصمت، أركل أفكاري، أهب أوراقي للرياح، أصير كهلا لا يحمل من السنين سوى أوزارها..
أتبعثر في طرقات الأرق.. تعربد خمر الفراغ في روحي..
المرأة غلف الصمت رقصها.. سكنت، وتكورت، كأنها نغم مبتور من ذاكرة العازفين، الذين يعبرون الليل على النبض المتحشرج، يقتاتون الأوتار، والأنغام.. يلقون بين راحتي أعاصيرهم، يزخرفون صدري بطعنات الوجع.. يتهشم جسدي، تفر من أضلعي الذكريات التي تئن من حمل الأسماء، تسقط في حضن الذي كان،

– أما زلت حزينا لفقد ملامحك.. ؟
– ليست هي المرة الوحيدة التي أفقد فيها ملامحي.. لقد عشت دهرا بين بشر بدون ملامح، حيث الظلام يعم كل شئ..
وحين خرجت إلى الضياء، لم أكن أعلم أن لملامحي جدوى.. كنت فقط أشتعل رغبة للاغتسال بضوء البدر..
عند شاطئ لبحر هادئ، رأيت فتاة تقطر عيناها أصفادا، وقمرا تخنقه الأشعار، تغلق شرايينها على آهة تحكي العمر الجاف الذي عاشته..
حادثتها.. كانت مسكونة بالعشق، ترتجف اشتياقا للملامسة، تنسمت نهديها بأناملي، فتراقصت شفتاها، تذوقت لأول مرة الغرام ممتزجا برائحة القرنفل..
ارتميت فوق جسدها المتعطش للاشتهاء، ذبت في ارتعاشاتها، تشبثها، دفأها..
قذفت نجومي بداخلها، شعرت بالانهيار، سقط جسدي على الرمال متمزقا، تناثرت عظامي، ضاعت ملامحي حين لوثت ضوء القمر..
– دائما نخلق نهايات مؤلمة لأنفسنا.. فليكن ما بيننا سر، ولنسترح من ألم الذكرى.. فدائما نهاية كل حب اكتواء..
هل أستعين على ألمي بالذي كان.. ؟ بمجرد ذكرى مشوهة، بأوجاع الفراق والخداع.. ؟
تتوغل نظراتي في قلب سماء سوداء، صماء.. تقترب المرأة مني حتى الالتصاق.. ونصف القمر يبتسم، وكأنه يبكي.. همست.. :
– لا معنى للتأملات الشاردة في سماء لا تمطر النغم، بعد ما رحلت الطيور منهزمة إلى حيث تسقط الشمس بين أنياب الضياع..

***

مفرد أنا وسط ظلام يلف الكون برداء العمى.. لا أدرك من ذاكرتي سوى صورة تلك العجوز التي كانت تجلس أمام كوخها المتهالك، تصحن الحناء بيدين متجعدتين، تنتظر في قلب الظلام، تنتظر الغائب بأمل اللقاء..
غنيت لها يوما (الراحل لا يعود) لم تسمعني، وظلت تصحن الحناء حتى أعيت السنوات، وهي شاردة، لا تقوى على الصياح في وجه النهار..
جلست أمامها يوما، حاولت أن أخبرها بعدم جدوى البقاء وسط أطلال الهزائم، بين دفتي الوهم الذي يشابه الانتظار.. لم تعرني التفاتا..
وكانت عيناها قد تحجرتا، وشعرها الأبيض قد طاول الزمن، وصدرها قد توقف تماما عن النبض، عن التنفس.. يداها فقط كانتا تدوران بجد لصحن أوراق الحناء، التي تناثرت حولها كالأيام..
في صباها كان لها وجها بلون الأمل الوردي، شعرها كان مصبوغا بلون الشفق، كانت تعشق الياسمين، وعقود الفل..
كانت تغني للقمر وتداعب النجوم.. وكانت تعلمني الشدو الهامس، وعشق الجمال.. ورائحة القرنفل تفوح من بين شفتيها كأسطورة للبهاء..
وحين انشق القمر، سقطت أغانيها تحت أقدام الرحيل.. بقيت وحيدة، بلا أغاني، بدون أشعار، بلا حبيب..
وكنت أحب أن أغني لرائحة القرنفل لحنا وضعته هي في ذاكرتي..
حين سمعتني أغني، تذكرت حبيبها، الذي كان يحب هذا اللحن قبل أن يمتطي الرحيل.. سألتها عنه أجابت:
– سيأتي.. وعدني أن يأتي.. سيقيم لي حفل عرس ما رأت الدنيا مثله.. ولذا.. أنا أجمع أزهار الحناء، أصحنها، استعدادا ليوم الزفاف..
وسرا تبكي، وتطلب مني أن أغني لحن رائحة القرنفل..
ظللت أغني لها حتى ضاع سمعها، وبصرها، ونبض قلبها، وتناثرت الحناء على حدود الرحيل..
وبت لا أدري لمن أغني، ومن أي شفتين سأتنسم رائحة القرنفل، وقد ضاعت الأنغام في جوف ظلام يبتلع الأشياء.. لم يبق إلا لحن واحد.. أخشى أن أغنيه فلا يسمعني أحد ..
لحن يقول أن الراحل لا يعود.. أبدا لا يعود..

***

صامت، أرشف من الموسيقى ترنيمات وجعي، وأرصد الغمام يخبئ الشمس، يهديها إلى كفي الجبل، يستقبلها باشتياق إلى دفئها، تنام الشمس بين كفيه، تغمض جفنيها، تسترخي تماما، يتراقص حولهما الغمام..
أنقش وجه الحبيبة وشما على صدري، أراقصها على شواطئ الذكرى، حيث كنا نستتر بضي القمر..

- أحبك.. هكذا..
- أحبك.. هكذا..

ونغيب في نشوة العشق، وتنمو أشعاري حين تتلاقى الشفاه في عناقها الوله، فأصنع من الأغاني زهرة أزين بها أناملها..
ألثم شفتيها، وتنتشي الأشواق لتلاصق جسدينا، ننهل من الهوى حتى حدود الارتواء..
آه.. قد غاب طيفها من أمامي، كما غابت من حياتي سلفا..
انطفأ سراج الذكرى، وأناملي تعبث بوجه الظلام، والصمت..

***

تتشطر الأنغام على وجوه العازفين، ولحني موءود داخل صدري.. تتراءى الأوهام كأنما تراقص الأكفان المعلقة..
يعود طيف الحبيبة باكيا.. أمس دموعه بأنامل تحترق شوقا لملامسة وجنتيها..
كم وددت أن أدثرك بألوان الغرام، وبالغناء.. وأنت تفرين دوما متشحة بالسواد، وبالصمت..
الآن أشتاق أن أغنيك بصوت الطفل الذي لم يعتاد هز الأوتار، ومداعبة النغمات، ولنرقص سويا على إيقاع اللحن الذي اتخذناه عهدا وميثاقا..
يتسلل العازفون، يطئون ألمي، يداعبون نظراتها الواهنة، يعبثون بطيفها.. وأنا أرقب اللحظة تختنق، فألهث خلف طيفها المارق في جوف حناجر العازفين..

***

- مباح الرقص بين لحظات الزمان المتوقف..

توقفت المرأة حين سمعت كلماتي..
كان الوهن قد تجمع من شتات الكون وغلف جسدي، ارتميت عاجزا، ساكنا.. تتدلى الأكفان فوق رأسي.. ترتجف كالأحلام..
والعازفون يفتشون في الظلام عن ملامحهم.. يبكون وجودهم بلا أغاني..
اقتربت المرأة، جلست أمامي، لامست ركبتيها بركبتي، وضعت يديها على كتفي.. تنظر في عيني كأنما تريد النفاذ إلى تجويفي.. ارتجفت، حاولت الابتعاد.. همست في وجهي كأنها تقبلني:

- ألا تذكرني.. ؟
- لا أحب..
- ستذكرني..
- لا أتمنى..

عند مفترق الطرق، ينبثق رجل مهرولا.. يقف أمامي.. تنظر إليه المرأة ساخرة، تنهض، تزاول رقصتها المملة..

يجلس أمامي الرجل.. يشير إلى الأكفان المعلقة على العدم..
- هذه.. هي.. ؟
- نعم.. هي..
ينقلب على ظهره، يضحك ساخرا، يبكي هازئا.. تقترب مني المرأة، تتحدث بكلمات تقطر خيبة الأمل.. :
- كلما ارتجفت الأكفان أظن موعدك قد أتى.. ألن تموت أبدا أيها الدميم..
- لا يا امرأة.. إذا كنت تقتلين في كل عام شاعرا، فثمة أمر مختلف معي.. فأنا لم أخلق لأموت على صدر غانية..
- أسكت..
- ألا تريدين أن تعيدي للأشياء أسماءها، فما اسم امرأة كلما توارى زوجها............
- أسكت.. أسكت.. إن لم تمت.. سأقتلك..
- أنا أيضا سأقتلك..
والرجل ينظر إلينا حائرا.. سألني.. :
- من أنتما، أين ملامحكما، أين ملامح العازفين، من مزق أوتارهم، من يغتال الجمال في هذا الكون.... ؟
- امرأة.. امرأة مثل هذه..
لطمتني وفرت تبكي خلف الأكفان.. سألته :
- من أنت.. ؟
- غريب.. وأنت.. ؟
- الأكثر اغترابا..
- أريد الانتهاء..
- أدخل أكثر الأكفان ارتجافا.. فهو كفنك..
نهض مترددا.. ناديته.. :
- يا أنت.. هل يستطيع كفنك أن يحتويك بكل ما تحمل من أوجاع.. ؟ ألا تخلصت من آلامك هنا، فتدخل كفنك نقيا، خالي من الذكرى.. ؟
جلس، اقتربت المرأة حبوا، تتلصص سماع الرجل وهو يحكي..
***

فؤاد

أنا أول عاشق في بلادي.. تقيأت وجوه قومي لأملأ فراغ رأسي بالشعر، بالحلم، بالحب، بأناشيد النجم المنفرد بعشيقته..
أنا (فؤاد)، ابن بلاد (العائلة الكبيرة) تقع بلادي في حضن جبل فريد في شكله، وحجمه، وارتفاعه العظيم.. تكسوه الأزهار من كل لون، وأشجار بكل الأحجام، تحوي بين أغصانها كل أنواع الطيور والبلابل والعصافير.. كأنه جنة تصل ما بين السماء والأرض..
يحتضن الجبل بلادي من ثلاثة جوانب، كأم تحنو على صغيرها.. ويغلق البحر الواسع، الهادئ الجانب الأخير من أرضنا..
على أرضنا أقمنا ثلاثة ديار فقط.. دار للولادة والرضاعة، ودار للأبناء، ودار العائلة الكبيرة..
يرأس العائلة (حكيم) شرط توليه الرئاسة الوحيد أن يكون الأكثر حبا للعائلة.. لا نختاره نحن.. بل هو الذي يبذر حبه في قلوب القوم، حتى إذا ما فاض حبه للقوم، تقدم لينذر نفسه حكيما وخادما للعائلة بأسرها..

دستورنا أن كل النساء لكل الرجال، وكل الرجال لكل النساء.. لا زواج، وحين تشعر المـرأة بـآلام الوضـع تدخل دار الولادة، تضع مولودها بين يدي المربيات المتطوعات لهذا الشأن، وبعد أن يشب الوليد ينقلونه إلـى دار الأبناء.. حتى يحين أوانه للخروج إلى العائلة..
ملابسنا بلا جيوب.. لا نعرف لغة النقود.. كل من يحب أن يأخذ شيئا يأخذه بلا تردد.. فالأرض تجود علينـا بخيراتها، وكذلك الجبل..
أما عن المحرمات عندنا فهي، أكل اللحوم والأسماك، وحرام أن يمتلك رجل امرأة لنفسه، أو أن تمتلك امـرأة رجلا لنفسها..
في دار الأبناء نشأت أنا (وضياء) كتوأمين، ضياء يحب الأغاني وأنا أحب الأشعار.. ضـياء ينظـر إلـى النجوم، يحاول أن يحصيها ليضمها إلى صدره، وأنا أنظر إلى النجوم أغازلها، أحاول أن اغزل منهـا تاجـا أهديه إلى (زينة) تلك الفتاة التي ترق حتى تخشى أن تجرحها النظرة، أو الكلمة..
أحببتها.. بمشاعر بكر، لا تعرف الزيف، بفطرة نقية، نشأت بين الزهور والرياحين..
وكان موعد خروجها قبلنا، فجسدها فائر الأنوثة، طاغي الجاذبية، والدفء..
في تعميدها، ضمخوها بالطيب، ألبسوها ثيابا بلون الغمام الذي كنت أكتب عليه أشـعاري.. وضـعوا علـى رأسها تاجا من الفل.. باركها الحكيم بقبلة بين حاجبيها، أعلنها عروسا تزف لرجال العائلة.. أطلقوهـا تعـدو بين المروج، تختبئ بين الأشجار، والرجل الذي يجدها أولا تكون عروسه مدة ثلاثة أيام.. بعدها تكون مشاعا لكل الرجال..
أقاموا الأفراح، أطلقوا الضحكات والزغاريد، شربوا النبيذ، واخترقوا جسد (زينة)حبيبتي..
وأنا أسكب دموع ألمي.. لو كنت بينهم ما مسها أحد غيري.. ويواسيني (ضياء)..

- قريبا سنخرج، وتنال منها، ومن نساء العائلة كل ما تبغي..
- لا أريد غير (زينة)
- هناك أجمل منها..
- (زينة)
- لكن هذا مخالف لتعاليم العائلة الكبيرة..
- أنت لا تدري يا ضياء باحتراقي وأنا أتخيلها بين ذراعي رجل غيري، أو تحادث رجل غيري، أو يراهـا رجل غيري..

ويتركني ضياء خوفا أن تسمع حديثنا المربيات.. ومكثت طيلة اليوم أداعب منابت الذكورة لأثبت للقـوم أنـي رجل مكتمل الذكورة، وفي الليل ذهبت إلى إحدى المربيات، داعبت جسدها النائم، قبلتها بشراهة، احتـضنتها بشدة، حتى قذفت أول مياه ذكورتي بين ثدييها..

- حسن يا (فؤاد) أنت الآن رجل مكتمل الذكورة.. يجب أن تخرج غدا..

بت أحلم بالغد.. لن تكون (زينة) لأحد غيري بعد الغد..

***

تم تعميدي عريسا لنساء العائلة.. سكبوا على جسدي طيبهم، وعطرهم.. والحكـيم تـلا علـى المحرمـات، وباركني..
انطلقت بين جذوع الأشجار، وانطلقت خلفي النساء، وأنا اختبئ منهن، ابحـث عـن (زينـة).. لا أجـدها، أهرول إلى الحكيم.. أسأله عنها..

- (زينة) عروس (سعيد الجنوبي) الذي فاز بالعثور عليها ليلة أمس.. باقي لها ليلتان، ثـم تكـون لـك ولرجال العائلة.. تمتع الآن يا فؤاد بليلة عرسك.. فعشرات النساء الجميلات يبحثن عنك..

تهاويت بين ذراعي أول امرأة أمسكت يدي..
في الصباح ذهبت المرأة إلى الحكيم لتخبره أني لا أنتصب كالرجال، استدعاني، وقال إن كنت لا أرغب فـي هذه المرأة فيمكن استبدالها بأخرى..

- انتقي من نساء العائلة من ترغب فيها..

- لا أرغب في غير (زينة)
- ستكون لك غدا..

وفي الغد قابلتها.. ضممتها بكل شوقي..

- أحبك يا (زينة) حبا يسمو فوق أمنياتهم وشهواتهم..
- أحبك يا فؤاد.. كم كنت أشتاق لكلماتك، وأشعارك.. هذا الجنوبي يؤلمني، قبلاته تمزقني.. نعم أشعر أنــه يحبني، لكني لا أستطيع أن أحتمل شراهة نظراته، لمساته، ضماته.. انتشلني منه يا فؤاد.. انتشلني..
- أنت لي يا زينة.. لن تكوني لغيري أبدا، ولن أكون لغيرك أبدا..

عشنا معا أربعة أيام.. نتجرع الهوى ألحانا، ننصهر عشقا، ننافس الأزهــار جمــالا، نمــلأ الأفــق أغــاني وأشعارا..

حتى طلبها سعيد الجنوبي.. وقفت أمامه متنمرا..

- لن تأخذ زينة
- هي ليست ملكك..
- لن تأخذ زينة
- فليحكم بيننا الحكيم..

أخذوها من بين ذراعي.. ما أن اقتربت من صدره حتى تهاوت إلى الأرض..

- أغثني يا فؤاد.. سأموت..

انطلقت صوب سعيد الجنوبي، لطمته، ولطمته، ولطمته.. أقسمت أن أقتله.. حتــى وقــف أمــامي الحكــيم.. احتضنني بدفئه.. بكيت على صدره آلامي..

وأصدر الحكيم حكما يقضي بحبسي عشرة أيام في قفص من البوص، ومنعي من الحديث مع أي إنسان..

ويلهث الوهن داخل جسدي، تختنق أنفاسي.. تورثني الوحدة قشعريرة الجــسد المحكــوم عليــه بــالاعتزال، وأشباح الخوف تطاردني، تهددني بالهدم، بالرجم، بالرعب.. والقوم يرقبون صمتي، يحاولون أن ينزعوا مــن عيني صورة زينة حبيبتي.. يتوغلون في ممرات النفس، إلى جوف الأحــلام، يحــاولون بتــر مــشاعري.. أتقيأهم، يلتفون حول روحي كالعليق، أنزعهم من داخلي.. تتمزق أحشائي، يتصاعد الألم يصهرني، يحيلنــي رمادا بدائي التكوين..

سجين أنا بين سيقان البوص، والأشواك.. بعيد عن شفتيك، محروم من مداعبة شعيراتك، من همساتك، مــن الأغاني التي عزفناها سويا على إيقاع المطر، وصمت الجبل، وفواح زهور السوسن..

والقوم يتحينون لحظة انتهاء حلمي المنصهر في أطياف العشق، يتحينون الانتصار علــى حبــي المــسلوب، لإثبات حقيقة الزيف الذي يعيشونه بلا حب، كأشجار بلا جذور، كأزهار بلا رائحة..

وفي كل ليلة كان ضياء يحوم حول قفص البوص.. يغني ليسامر وحدتي..

***

تسيطر العتمة على مدارك الإحساس، أبتغي أن أحلم، أن أتجرد من الأشياء.. أن أراها تمد بصرها إلى النجم المرتعش من سطوة الآلام..

وأنا غريق في محبسي بين جذوع أشجار كالشر المقيت، أفتقدك، أكاد أن أجن.. رغبتي في الــصراخ تفــوق إمكانيات وجودي..

دعوني أصرخ ، أتكلم ، أتوهم، أتخيل.. دعوني.... دعوني أحبها..

أحس وجعك يا زينة.. أحس وجعك، دموعك، تمزقاتك، ترددك بين إرادتك للحب، وبين قانون العائلة الغبي..

حياتهم أضيق من حلمنا يا زينة.. كيف نحيا بلا حب في بلاد الزهور، والقمــر، والبحــر الهــادئ، والجبــل الحنون، والأشجار الفواحة برضاب الحياة.. ؟

كنت أغتسل بالفيضان الهادر من حلمك، أغسل به مشاعري التي تتربص إشــراقك، لتــسجد علــى كفيــك، وتتوضأ من رضابك.. فأشتعل رغبة لعناق كافتراش ضياء الفجر على أوراق الورد، كاســتكانة اليمــام فــي أحضان الجبل..

***

بعد انقضاء العشرة أيام جاءني ضياء.. ناداني..

- هيا يا فؤاد.. إن كنت ترغب في إعلان توبتك، فاخرج من قفص البوص.. (العائلة الكبيرة) في انتظارك.. قد انتهت الليلة فترة عقوبتك.. ما بقي سوى إعلان توبتك.. تب يا أخي، ثم مارس حبك في طي الكتمان.. لقد خرجت زينة من عزلتها منذ خمسة أيام، أعلنت توبتها منك، ومن حبك..وكل من ضاجعها أقسم أنها كانت تنزف عشقا، كزهرة تنثر شذاها بين أحضان الربيع..

هيا يا فؤاد.. اقذف عشقك أنت الآخر في أحضان نساء العائلة.. إنهن يشتهينك، يرغبن عبثك، ومجونك..

خرجت إلى ضياء، مكلل بعار العشق.. والظلام يمطر نجومه مرتجفة، تتناثر أشلائها خلف أشجار الجميز..

***

أنسل إلى أروقة الصمت.. أبحث عن صدى صوتها.. كان يهمس في قلبي البارحة.. يحاصرني عواء الليل، والنغمات التي تخنقها الرتابة تتردد في خواء الزمن، يأوب صداها حاملا عزاء اللحظات الساقطة في تجويف الذاكرة..

تتكسر نظراتي على وجه الوقت، أستند على جدران ذاكرتي.. تفزعني ظلال التوابيت، وشواهد القبور..

أقبض على صرخاتي، أواريها احتمالات الضياع..

يتفجر الصراخ من عيني..

آآآآآآآآه.. آه يا زينة.. يا وجعي، يا عشقي المنصهر، الموطوء بأقدام العائلة الكبيرة..

تغزو الدموع مدن وجعي، تجتاح شوارعي، وأزقة روحي، لتسجن ذاكرتي في حضن ليل يرشف من روحي كل الضياء، فيحتضر قلبي وهو يغني.. وآخر نبضاته قبلة تبحث عن مستقر لها بين شفتيك..

***

دار (العائلة الكبيرة) تضيئه القناديل الزيتية.. النساء ترتدين ملابسهن البيضاء، تشف مفاتن أجسادهن.. ضحكاتهن تملأ الأفق، تغازل مشاعر الرجال..

(زينة) تتراقص على إيقاع الموسيقى الوهمية، تبذر عريها في أحداق الرجال منتشية.. والرجال يتناولون جرعات النبيذ، يدور بهم وسط حلقات الضوء الخادع في سماء الزيف.. (الحكيم) يتصدر المجلس، اكتست ملامحه بالبشرى حين رآني، نهض وضمني إلى صدره برفق.. بكيت على صدره.. أمر العائلة الكبيرة بالصمت والهدوء.. جلست زينة كأنها لا تراني..

- هل كنت قاسيا عليك.. ؟
- ....
- قد سمحت لك بالكلام..
- أعلن توبتي يا سيدنا..
- عن ماذا التوبة يا بني.. ؟
- عن الحب يا سيدي..
- وهل نستطيع الحياة بدون حب.. ؟
- ....!!!
- الحب يا بني مثل هذا البدر الجميل، مشاع ضيائه لكل من يبتغيه.. وليس من حق أي إنسان الاستئثار به وحده.. وهنا، وسط دار العائلة الكبيرة كلنا نحب كلنا.. كل الرجال لكل النساء.. ولقد حرمنا على أي امرأة أن تمنع عنها رجل يريدها، وعلى أي رجل أن يمنع عنه امرأة تريده.. كل نساء العائلة لك، وأنت لكل نساء العائلة..

أما الحب الأناني.. أن تستأثر بامرأة واحدة لك وحدك، وأن تستأثر هي بك، فهذا ما حرمناه في عائلتنا.. لأنه يورث الافتراق عن حضن العائلة، وحب الامتلاك الذي يؤدي إلى الحقد، والبغضاء.. حتى الاقتتال، وسفك الدماء..

والأرض التي تروى بالدماء، لا تنبت خيرا أبدا.. ولا تجني منها سوى الشر المتفاقم..
حين خرجت من (دار الأولاد) بعد أن بلغت مبلغ الرجال، وتم تعميدك رجل من رجال العائلة الكبيرة، قلت لك أن كل ما ترغب فيه هو ملك لك.. حتى إن أحببت أن تأخذ مكاني، وتدير شئون العائلة، إن أردت ذلك سأخلع عليك (تاج اللوتس) الآن.. والمطلوب منك فقط أن تثبت للعائلة أنك تحبهم جميعا أكثر من حبي لهم..
حكيم عائلتنا الأول ولد من قلب زهرة اللوتس المقدسة، حين ضاجعها البدر في أول ليلة من أول ربيع على وجه الأرض.. وأهدته زهور (شقائق النعمان) إحدى زهراتها، فأنجب منها بذور العائلة التي ننتمي إليها بكل حب.. وهو الذي بنى دار الولادة والرضاعة، وكذلك دار الأبناء، ثم بنى دار العائلة الكبيرة.. بنى هذه الديار من أشجار السنط ذات الأزهار الصفراء، وعطرها الجميل المميز.. وحولها هذه الجنة من أزهار العنبر، والتمر حنة، والنعناع، والريحان، والبنفسج، والورد، والفل، والبخور المدغدغ للحواس، والنرجس، والياسمين..
وأشجار الزنبق، والأقحوان، والعليق، والدحروج، وأشجار الصفصاف، والعنب، والرمان، والدوم، ونخيل البلح، ونخيل العرجون، والزيتون، والتين، والخروب، والنبق، ومزارع القمح، والأرز، والقطن، والقصب...
وشق هذه البحيرات المقدسة التي ينمو على شواطئها البردي، وأزهار اللوتس..
وأمر الجبل الذي خلفنا أن يرتفع ليطاول السحاب، ويمد ذراعيه ليحتوينا في حضنه، فنأمن إغارة البشر الهمج علينا..
وأمر البحر الذي أمامنا أن يكون هادئا، وديعا، فلا نخشى الغرق في عبابه، بشرط أن لا نصيد أسماكه، كما يفعل برابرة البشر، الذين يتمتعون بأكل لحوم الحيوانات، والأسماك، ويسعدون بقتل إخوانهم البشر..
حكيمنا الأول بنى دارا واحدة لتجمع كل أفراد العائلة بكل حب.. ووضع دستورا نسير على منهاجه بكل الرضى، ولم يعترض عليه أحد من قبل، ليس خوفا، ولكن حبا وقناعة بان هذا الدستور يحقق لنا كل ما يتمناه أي إنسان، من أمن وسلام، فحرم علينا أكل اللحوم، إيلام أنفسنا وإخواننا، زجر الطيور والحيوانات، الكذب، القتل بكل صوره، وكذلك الحب الأناني.. حب الامتلاك..
الأمر الآن بيدك يا بني.. خلف هذا الجبل الجميل، وهذا البحر الوديع، توجد مجتمعات بشرية عديدة، كلهم يتصارعون من أجل قطعة لحم يأكلونها كالحيوانات الشرسة، يذبحون إخوانهم البشر في قتال مرير من أجل حب الامتلاك، وكلهم يدعون انهم ساميين، وان لهم حق مقدس، وانهم يتحدثون باسم السماء، وحقيقة أفعالهم لا توصف بغير الشراسة، والحيوانية، وسفك الدماء..إنسانيتهم تغرق في ظلمات كثيفة من الضغينة، والأنانية، والغرور المقيت.. يتكبلون بقيود جنون القوة، وتقديس الذات.. صوتهم يعلو عبر فوهات البنادق، تتفاقم عندهم مشاعر الحقد التي تتغذى على الأباطيل والخرافات، لا يستطيعون التحرر من الطغيان الذي يقيد عقولهم بالخوف، يسيرون في ضوء قيم ضالة، متخبطون بين سراديب الجهل والخرافة..
هم يبيحون الحب بصور مختلفة.. عندهم ما يسمى بالزواج، واسميه أنا بالخداع.. فهم يقسمون عند الزواج بالمعاملة الحسنة، وبما أوصت به أديانهم من إخلاص، وتفاني في إرضاء الطرف الآخر.. ثم يرتمون تحت مظلة الكذب والخداع في بئر الخيانة عند أول فرصة تتاح لهم.. ويسمون هذا (الحب)..! لا حب عندنا..
نعم، وأكرر.. لا حب عندنا.. حتى لا يكون خداع، كذب، بغض، حقد، حتى لا نسفك دماءنا، كما يفعلون..
ولك الآن أن تختار.. إن تبقى معنا، فنحن مهتمون بك، ونتمنى ذلك.. وان أردت الرحيل فذاك مبتغاك..
سنعطيك كل ما تريد.. غير انك لو اخترت الرحيل فليس لك أن تعود هنا أبدا..
يدمر الصمت بقايا اللهاث في حلقي.. أرحل.. ؟ أي أرض تتسع لأحلامي.. وحين تخنقني أحاديث العشق، لمن أبوح بسر قلبي.. ؟
من غيرك يا زينة تستطيع أن تحتمل جنوني المتبل بحب أنقى من وجه القمر.. ؟
أرحل.. أترك زينة.. ؟
وهل تستطيع الحياة بعد ذا أن تنبت في قلبي إشراقة كابتسامتها.. ؟
لا.. لن أرحل.. لا أستطيع الحياة بدون زينة.. همسها، رائحتها، ابتسامتها، أنفاسها المعطرة برائحة القرنفل..
– لن أرحل.. أنا معكم.. مع العائلة يا سيدي..

– ونحن فخورون بك، غير أن هناك أمر واحد فقط.. أنك وزينة ممنوعان من اللقاء، والمحادثة، والمضاجعة.. هي لكل الرجال، يرضونها وترضيهم.. وأنت لكل النساء كذلك.. لكنها ليست لك، وأنت لست لها.. هذا هو حكمنا، وقد وافقت على ذلك زينة.. والآن ننتظر موافقتك..
يكفيني أن أستنشق الهواء من زفيرها..
– قد وافقت يا سيدي..
ابتهجت ملامح الحكيم، قبلني بين حاجبي، ربت على ظهري.. نادى بصوت رخيم كأنه يغني، ويده تعانق كتفي..
– هذا عريس جديد.. ضمخوه بالطيب، اغسلوا جلده بالعنبر، والريحان، زينوه بعقود الفل، كللوه بالأقحوان، عطروه بقدسية النرجس والياسمين..
فالعطر جسر يصل ما بين الروح والجسد.. وبعد أن تعمدوه، فلتتزين له النساء، وله الحق في اختيار من يشاء، ولو اختاركن كلكن..
تسابقت حولي نساء العائلة.. بينما بقيت زينة تتردد نظراتها على وجوه الرجال..

***

صعدت فوق الجبل خلسة.. عند مدخل الكهف الذي يتوسط أعلى هضاب الجبل رأيت الكاهن، وفتاه الأخرس، يعزف الفتى ألحانا على آلته الغريبة، بينما الكاهن يترنم بأغنية كأنها صلاة..
حين رآني سألني عن زينة، وعن فترة غيابنا الطويل.. حكيت له كل ما كان.. ضحك ساخرا، أشار إلى النبيذ.. ملأت زجاجة كبيرة، ذهبت إلى الصخرة الخضراء.. حيث كنت أجلس مع زينة، نزاول طقوس الحب والعشق..
هذا الراهب يصنع أجمل نبيذ.. يصعد بي إلى متاهات الخيال كالبرق.. آتيه أنا بالعنب، ويعكف هو وفتاه على عصره، وتخميره..
يقولون إنه جاء من بلاد ما وراء البحر هو والفتى الأخرس.. وقد رفض حكيمنا انضمامه إلى العائلة الكبيرة، لأن قانون الحكيم الأول يحرم اختلاط الغرباء بنا، واختلاطنا بهم..
فسكن مع فتاه الكهف المظلم في أعلى الجبل..
رأيته مرارا يشعل النيران، ثم يضع فيها طيورا، وحيوانات صغيرة مذبوحة.. وبعد أن تحترق، يلتهمها هو وفتاه في انتشاء غريب.. !
جسدي ينتفض فزعا حين أراهما يمزقان أجساد الطيور، والحيوانات المحترقة بأسنانهما الحادة.. ! لكن الراهب كان يحفظ الكثير من الأشعار والحكايات الغريبة عن البلدان التي كان يتجول بينها.. وكان يستضيفنا عند كهفه، يسقينا نبيذه المعتق، فنغيب في نشوة الحب، وننصهر في بوتقة العشق..
والآن.. ها أنا أجلس وحدي، مستندا على الصخرة الخضراء التي تكسوها نباتات (ست الحسن)، بينما نظراتي تحاول اختراق حجب الرؤى، وتتساءل في عجز:
أين أنت الآن يا زينة.. ؟
سحب الوهم تحاصر مخيلتي، أتجرع النبيذ بحب، كأني اشرب الحب.. أتنفس النسيم بحب، أتنفس الحب.. ألثم الحب، أضم الحب، وأرقص.. أرقص.. أرقص.... ثم... ثم... ثم أتدحرج فوق ظلال الأمواج، كضوء يتمرغ في الظلام..
أتسلق حافة الفراغ، حيث الغرام كان ينام بين شفتيها، وتتزلق الأسرار من نافذة أهدابها..
ترتعش نظراتي عند حدود المسافات المبتورة، فألملم ملامحها من على وجه القمر، ومن بين أطياف المنى، ومن كل الجهات..
أخرجها من تكويني، من تجويفي.. تخرج.. كطيف ينبثق من أعماق وهمية..
تتجدل أشعة البدر في ظلمات الروح المجدبة، تتشكل كوجه (زينة) داخل كأس النبيذ المعتق..
– أحبك يا فؤاد..
يا لأفكاري المنفلتة بين المتاهات المسافرة تحت جفنيك.. تقتل الظنون مشاعري، تراوغني الهموم بين جذوع الأشجار، وسيقان الورد..

أعبر لحظة الاشتهاء المر بين عينيك، أشعر بالخوف من النهار حين تبوحين اسمي.. أفزع........

- يا فؤاد.. أحبك..

حقا... ؟ هل يعرف الحب قلبا يسافر عبر الانشطار دوما، ولا يأبه باحتراق الأحرف الهائمة في مدار العشق..

- فؤاد......

اهديني السبيل الذي يمحو من الفكر خطاياك، خلصيني من عهر الكلمات تخنقني، من كوابيس الشك في جدوى امتزاج الحروف..

- أحبك..

من أنت.. ؟ يا لروعة الاهتداء إلى التوهان.. ها أنا أركع لألعق آلامك، وأتمدد بالذهول فوق جسدك المسجى.. لتخرج أرواحنا، تتراقص على إيقاع الصوت الهامس بأنشودة الانكسار..

- فؤاد...

أحتضن الصمت، يتسلل الدمع، وأنت تفردين رموشك على منابت أحلامي، يتمزق المساء، تهجر النجوم القمر، يفر إلى مثواه بين أضلعي.. أتسرب مع الضوء على صدر السماء، ألثم شفتيك المرسومة على صدر الغمام، فتهرعين إلى ماضيك المنشطر على حافة الوقت كخلايا الوجع..

وتداعبك الرغبة في رسم الأحلام، والأقمار، والنجوم على كف كل الرجال.. ! وأنا المقتول بين ذراعيك هما، وحزنا، وعشقا..

أنا المتهدم تحت أجفان الليل، يسحقني عريك الملقى في أحضان العاشقين..

- ....
- ....

ألقيت زجاجة النبيذ، لا أحب أن أدور في متاهات الوهم وحدي..

أبصرت زينة تجلس جواري، غارقة في دمعها.. ترسم أحزانها على ذاكرة أشعار الحنين، تتشابك خطوطها كخارطة ترشد إلى مدار الفناء.. أحبك يا زينة.. هكذا.. بكل بساطة الحب، وعنفوانه، وزهده، وشبقه..

أحبك.. وسلي الأشعار التي ما توزن إلا على كفيك، وأنثرها بين شفتيك.. أحبك.. أحبك.. أحبك..

اقتنصي الصدق الذي ما أعيشه إلا بين ذراعيك..

أحبك يا زينة.. هكذا..

بكل الصدق، بكل الخوف من الردى..

***

في مزارع القطن.. كنت أجمع زهراته الناصعة البياض، ليتسنى للنساء أن تغزله أثوابا.. أو أكفانا لمن يختارهم البدر أن يكونوا نجوما جواره..

وكنت أصنع منه زهور تشبه الفل، أهديها إلى زينة، تضعها حول رقبتها، أو تزين بها فستانها الحريري..

وأحيانا كنت أنفشه كالبالون، وأضعه على خد الهواء، يسبح فرحا على أجنحة النسيم، يهبط على شعر زينة، يختلط بلون الحناء، تمسه أناملها.. تبتسم..

زينة كانت تعرف أن قبلتي قطنية..

***

اقترب ضياء.. همس كأنما يحادث الخوف..

- القوم يراقبون شرودك، ويتهامسون..
- ماذا أفعل يا ضياء.. الصراخ يملأ صدري، يدوي في رأسي.. لو عرفت الحب يا ضياء ما لمتني..
- انك تعيش وهم عظيم.. أي حب تتحدث عنه يا رجل.. !
- الحب الذي يشعرك أنك في جوف امرأة، تعيش كينونتها، وجودها.. تلتحف بمشاعرها وعواطفها.. إحساسها، فكرها، نظراتها، كلماتها، جسدها، كلها.. كلها ملك لك وحدك..

- وهل كانت زينة هكذا.. ؟
- نعم.. زينة كانت........
- زينة كانت في مخيلتك فقط.. كانت تخدعك بوهم الواحد المفرد.. لم يكن يعنيها سوى الاغتراف من نهر أشعارك.. لقد قالت لي يوما أن قبلاتك لا تثيرها.. فقط كانت تثيرها آهات الشبق التي كنت تسكبها في أذنيها..
- لا.. لا أصدق..........
- بل نعم يا فؤاد.. زينة تعشق بأذنيها.. تقتحم أبواب الجمال بوحشية، تغرس في أبيات الشعر قبلاتها، همساتها، دفأها، وجعها، جراحها المتعالية.. ثم تبكي لانشطار البدر تحت أزهار البنفسج..

أنظر.. على كفي ما زالت تضوي دموعها.. كانت تريد أن ترسم صورة مزيفة لحزن مستلب من حكايات الشعر القديم، وقصص انهمار الظلام على القلب الموجوع..

هكذا هي دوما مع الرجال الذين يحسنون صناعة الكلمات.. تغمض عينيها في نشوة الأشعار، ولو كان وعيك متيقظ، لرأيت نياشين القبح على ملامحها، ولعرفت أن تلك العواطف التي تبذرها، إنما هي زيف تتقنه، تدربت عليه سنوات وسنوات..

لست أنت يا صديقي عشيقها الوحيد.. هناك الكثير والكثير.. وكل منهم كان يصدق أنه الواحد المفرد، في قلبها، وعلى صدرها.. كيف أعماك الوهم يا صديقي.. كيف.. ؟

- ....
- كنت أرقبك يوما وأنت تنعم بوصالها، فوق الجبل عند الصخرة الخضراء.. كنت نائما على صدرها، وبالمصادفة اقترب أحد عشاقها السابقين.. (عزت) أتذكره.. ؟ حين رأته، خبأت رأسك في حضنها.. ليس عشقا، وإنما لتواري نظراتك، فلا تراها وهي تغازله بالنظرات المتيمة.. لقد رأيت ذلك بنفسي..
- أنت كاذب....
- بل أنت الواهم.. ما أحبت زينة أبدا.. بالأمس أرادت أن أكون سميرها، خوفا على مشاعرك تنصلت منها إلى حضن امرأة أخرى، أقسمت أن تهديني إلى الردى، هددتها أن أخبر الحكيم، خافت، نهضت ترقص عارية، حتى اشمأزت من عهرها النظرات..!

ثم توارت فجأة، وأنا أعرف أنها تتوارى حتى يظن الجميع أنها كانت حلما..

مضيت أبحث عنها.. فوق الجبل، وجدتك ثملا بجوار الصخرة الخضراء، وهي على صدرك، تغترف من جسدك شهواتها، حتى إذا ارتوت منك، تركتك مهملا..

- لكن يا ضياء............
- اسمعني يا فؤاد.. لا توجد امرأة يبكي من أجلها رجل.. كل النساء يعشقنك ما دمت قادرا على إشباع رغباتهن.. وزينة هكذا، لا تذكرك إلا حين تشتعل شهواتها..

هيا يا صديقي.. هيا.. نغتسل في البحيرة، ونتطيب، استعدادا للاحتفال الكبير.. فاليوم ستخرج من دار الأبناء أربعة عرائس، لعلنا نستطيع بعد تعميدهن أن نقبض على إحداهن.. لقد اشتقت كثيرا للفتيات الصغيرات، الأبكار.. أتعرف لو أمسكت إحداهن، سأهبها لك، فقط لتعرف الفرق بين الفتاة البكر، وبين زينة، تلك المرأة التي تصبغ شعرها بالزيف.. هيا يا صديقي.. هيا.. لتنسى تلك المرأة التي تحاول أن ترتدي ملامح غير ملامحها، لكن دائما يفضحها عطرها المجوسي..

***

تراودني الرغبة لإطلاق صرخة لا يحتملها الظلام الذي يحبو خلسة بين أحضان الخواء.. تسقط صرخاتي ميتة فوق ضوء كسول، كسوووول كجسدك حين ينام فوق موجة بلا بحر بلا شطآن، بمحاذاة الفراغ، في مهاوي الصمت.. حيث جراحي ما زالت تنزف حمم الفراق، والأمنيات تحتضر بين يديك، وجثث الأحلام تتوهج بفيض القصائد..

أرقبها...... كالموسيقى توزع إيقاعاتها على النسائم المارة من تحت قدميها، تلقي عريها في بحار النهم، والانصهار..

أعرف الكثير عن اكتمالها الساذج، والكثير من هزائمها، وشواطئها الفارغة من الأمواج، من الزبد، من الرمال..

وتلك الملامح التي بدلتها بمزيج من الخطيئة، والصمت، وصبتها في عزلة اللهاث الذي يختصر الزمن..
ثمة شئ بيننا لا يرى.. لكنني أحسه، أشمه، أتذوقه من خلف النهاية، أشعره رغم الفراق، من داخل الأعـذار العذبة التي تغفو على صدري، كما تغفو النجوم في حضن السماء..
يبرق جسدها تحت طيات الظلام، متكورة على نفسها.. أنزلق مضطربا فوق موسيقى التأمل الشارد.. رغبـة غبية تدفعني للتعري بين ذراعيها، تتداعى أفكاري بين نهدين يرجوان المداعبة،ونشوة التلاقي مع شفاه شرهة لامتصاص رحيقهما..
مبتلى قلبي بالاشتياق..
يا زينة.. أكل ما تنامى بين أعضائنا كان مجرد شهوات.. ؟
تسقط الطيور حاملة أحلام العاشقين، يلف الغمام رسائله في نشوة الأوهام، أدفن وجهي بين ارتجافاتها، أرفـل بين قيود الكلمات، وأصفاد الممكنات.. أعاقر الخمر، وسهدي..
هذه الأرض ما عادت أرضي، ولا السماء صارت سمائي.. ذابت ترانيم اليمام، والنوارس رحلت متجهمـة.. بينما أنا أتجرع الضوء، الحلم، وأنام بين عينيها المسبلتين، فيأويني جفن الليل بين تجاعيد ملامحها، أذوب بين شفتيها، أنزلق على لعاب الشهوة، أتدثر بدفئها..

- في أحشائي طفل منك..
- لقد رأيتك تضاجعين كل الرجال، كل الأفكار، كل الأشعار..
- ألا تعلم أني أحبك.. أنت وحدك..
- كيف تملكين كل هذه المشاعر، وكل هذا الكذب في آن واحد.. ؟
- أنا لا أكذب، أنا.................
- أنت أول كاذبة، أول عاهرة في تاريخ العائلة.. أنت..... أنت...... لا يمكن لامرأة أن تكون أنت.. أنـت سر خادع في مراعي العهر.. لقد رأيت انفلاتك إلى أحضان الرجال.. لا تعتذري.. أعـذارك أقـبح مـن أكاذيبك.. لقد رأيتك تسبحين في نشوة الخطيئة، وجسدك الذي كان يرتجف حين أجـذب شـعرك، صـار مرتعا مباحا، فتغنين الآهات غنجا، وترسلين الأمنيات فوق الغمام وحيدة، تمطر المـر علـى زمانـك.. وتريدين أن أمتص من ثدييك طعم الهوان.. ؟علقم طعمك يا زينة.. علقـم طعمـك.... عفـن عطـرك الممزوج بعرق دعارتك..

***

تمتد الصحراء حتى حواف العمر.. تروي السماء رمالها بالدموع، وتكسو ملامحي بصدأ الليالي الخالية مـن المشاعر.. فلا أملك غير الأحلام التي تطفو من عيني، والأماني المنهزمة..
يبلل الأسى وجه الحنين، أتذوق من شفتيها طعم العاصفة.. ألملم صورتها التي تنحدر من جوف الذاكرة إلـى نهاية الحلم.. وخز الذكرى ينزف الجراح..
كيف خانتني الأحلام.. ؟
كيف خدعتني المواقيت.. ؟
كيف أعبر حدود الجراح.. ؟
تخرجني الكلمات عبر حدود الممكنات، تنعطف بي السبل إلى منافذ على شواطئها الهجير..
يطفئ الخوف شوقي إليها.. أسقط، أسقط، أسقط بين ظلال الحروف ومعاني الكلمات.. أتجرع أكوابا ممتلئـة بالصمت، وزينة تلملم أعضائها من بين فكي الارتخاء، والاشتهاء، نهبط سويا، وقد أسكرتني الكلمات التي لـم أكتبها..
عند أقدام الجبل، رأيت الحكيم وجمع العائلة الكبيرة في انتظارنا.. حين رأتهم زينة أدركـت مـا ينتظرنـا.. صرخت..
– أدركوني.. أغيثوني منه.. يلتصق بي كالظلام.. يلاحقني دوما، يهددني، يتوعـدني.. لا أسـتطيع الفـرار منه..
جرت إلى الحكيم.. سجدت تحت قدميه تبكي.. وابتسامة الانخداع الأخير طافية على شفتي..

الحكيم والعائلة جلسوا بعيدا يتشاورون في أمرنا.. بينما أنا وزينة نجلس منبوذين في انتظار الحكم بالقتل، أو البتر..
آه يا زينة.. على ضفتيك كان مسكني.. وها هي الأيام ترسم على وجهي تجاعيدها، لتتبئ رسل الموت عن مكمني في متاهة روحك، بين دوامة عمرك..
هذا المساء ينبت وجوها كئيبة.. تسامر الوهم، تستحل التلاشي.. فأكتب على جفوني، على صفحة نهر العشق.. إني أحبك... أحبك...
وان كان عشقي ما يزال يخشى غدرك..
على غير توقع عانقتني زينة.. قبلتني بكل الجمال الذي يسكن الحياة.. نظرت إليها متسائلا.. ؟

- ونحن على مشارف الموت.. أقول لك بكل الصدق أني أحبك..
- ....
- نعم أحبك.. هذه هي الحقيقة التي لم تستطع أنت إدراكها.. لا وقت لأن أقول غير أني أحبك بكل ما أملك من مشاعر صادقة..
- سيقتلونني.....
- أنا أيضا سيقتلونني..
- أنا أيضا أحبك يا زينة..

هكذا التقينا عند حدود الوقت المراوغ.. أبصرها كتميمة على صدري.. ترنيمة تتسول من الزمن البقاء.. أقدم وجعي قربانا، تتزفني تواريخ العشق فوق ضفاف تصطبغ بلفح النيران.. أسقط ككلمة يلفظها الهجاء.. يتخطفني الصمت، يكبلني.. تستحيل حياتي ومضة تمرق من بين شرايين الأمل إلى طيات الهذيان..
انتصب الحكيم أمامنا.. سقطنا سويا في حمى وداع الكلمات.. جلسنا وسط دائرة من الخوف.. أفراد العائلة الكبيرة يتطلعون إلى الحكيم الذي يرمقنا بنظرات غاضبة..

- ما زلتما تمارسان الحب المحرم.. ؟
- الحب يا سيدنا...................
- الحب خداع يستطيع أن يقتل كل الجمال الذي نرفل فيه.. أما أنت يا فؤاد سيتم صلبك على قارب التغريبة، يبحر بك بعيدا عنا.. إن نجوت من الغرق تستطيع أن تعيش مع آكلي اللحوم، الذين يرتدون ملابس بها الكثير من الجيوب، لاكتناز المزيد من كل شئ..

وأنت يا زينة، ستصعدين الجبل وحدك، ولا تهبطين إلا بعد أن تضعين ابن الزنا الذي في أحشائك بين أنياب الذئاب، قضي الأمر..
أطلق ضياء صرخات فزعة، فشلت كل محاولات القوم لإسكاته.. صرخ..

- أقسم أن لا آكل ولا أشرب إن رحل فؤاد، أقسم أن لا أضئ لياليكم بالأغاني إن رحل فؤاد، أقسم أن أبغضكم جميعا، وألعن القمر والنجوم وأزهاركم وبحركم وجبلكم، وألعنكم جميعا.......

لم يستمع إلى صراخه أحد.. نزفت القلوب كثيرا، علقوني على الصاري، وزينة تنظر نحوي هلعة، تمد يدها المرتجفة، تهتف والصمت يكبلني:

- مد لي يدك.. قبل أن يعود النهار وقد ذبلت ورودي..

مد لي يدك.. قبل أن أسقط في تجويف الزمن القادر على تمزيق معاني الحب والجمال..
أرسلت إلى ابتسامة بطعم الاحتضار، وقارب التغريبة يسير متخبطا بين علامات الاستفهام.. وزينة تواصل نشيدها..

- مد لي يدك.. ستهجر سمائي الطيور، ولن أهتدي إلى نبع الأشعار..

يرتجف قلبي المبتلى، ويداي المقيدتان تعجزان عن إهدائها وردة بلون شفتيها، أو رسم صورة أخرى للحياة..

- مد لي يدك...........

غصت في عتمة الفراق، ذاب في المدى الأمل الذي كان يداعبنا عند إشراقة كل فجر..

***

سار قارب التغريبة حتى اصطدم بأرض شرسة لامتصاص رحيق الحيـاة.. انكـسر الـصاري، سـقطت وأصفادي في مهاوي الغرق.. جاهدت كثيرا للانفلات، للخروج من بين الأمواج التي تلطمني بغير مبرر..
تنقلت كثيرا حتى هدني الترحال.. هجرة الأوطان أشد قسوة من هجرة الأحباب..
وها أنا.. لا أستطيع مواصلة الاغتراب، ولا أستطيع الإياب.. فأين الانتهاء.. !
نهض فؤاد.. اخترق أول كفن اصطدم به.. بينما المرأة تبكي.. تترنم وجعا، تغني صمتا..

***

- ما انفك الإنسان ينظر داخل نفسه، حتى يرى حقيقة ذاته.. فإذا رآها أحب أن يهـديها إلـى وهـم البقـاء الأبدي..

سمعت كلمات المرأة، وأنا أحاول أن ألملم أفكاري ومشاعري الشاردة في تمزقاتها.. والعـازفون صـامتون.. كما هم صامتون.. بل أكثر صمتا من كل صمت مضى.. قلت للمرأة التي كانت تراقص كف يدها..

- عجيب أمر النساء.. !
- بل عجيب أمر الاحتياج.. !
- زينة لم تكن تحتاج شئ.. توافرت لها كل أسباب الحياة الجميلة، كانت تعيش بين أجمل الألوان، والـضياء والأزهار، تحت سماء صافية، بين بحر وجبل رائعين، وفؤاد كان يملأ روحها بالعشق.. لماذا أوهمته بأنه الواحد المفرد، ماذا كانت تبغي سوى تدمير رجلا أحبها بكل هذا الصدق..
- أحقا أحبها.. ؟
- نعم، بكل تأكيد أحبها.. حتى أنه..................

قاطعتني وهي تطوق عنقي بذراعيها، غاصت في عمق نظراتي، قبلت شفتي بعنف الاشتهاء، تهاويـت علـى شفتيها، تشبثت بالتصاقها، تقلب جسدي فوق جسدها في أنحاء المكان.. مارسنا الهوى/ العشق علـى صـوت نواح العازفين.. حين انتهينا ولتني ظهرها، نظرت إلى الكفن الأسود بتحد.. ناديتها..

- يا أنت.. يا عشقا لا أعرف هويته لكني أعشق مذاقه.. هذه القبلة، وهذا العشق لا تمتلكـه سـوى امـرأة واحدة.......
- زينة.. أليس كذلك.. ؟

وهم كان أم إشراق.. لكني رأيتها تنزلق نحو ما يشبه السماء السفلية ! وقدماي تنزلقان دون جسدي خلفها.. ودموع العازفين تغسل عهر المكان..

زيـــــــــنة

للحياة وجهان.. أحدهما يشكل من النرجس صفعة على وجه طفلة، كل ما تبغيه من الحياة أن يـدخل الهـواء صدرها حرا..
والآخر يشطر البدر، تغوص بين شقيه الأماني..
وتمر الأيام عرجاء.. تستند على الزمان المنهزم، تجرجر تاريخ الزيف، قهر المشاعر، ذوبان النبض،احتراق الأحلام..
لتبقى دمعة تعجز يدي عن تشكيلها، وتعجز عيني عن إبقائها سرا..
عشت زمنا في قلب التيه، أتلقى الصفعات من كل صوب، أفقدوني الإحساس حتى بطعم القـبلات، مارسـت العشق ممتزجا بالخوف، حلمت بالضياء سرا، عشت الظلام واقعا حتميا، حيث اللافرار..
كنت أرسم على جدران ذاكرتي صورة ممزقة للأرنب الذي أعشق نعومته، خوفا أن يتهموني بتشويه جـدران الزمن بشيء جميل..

أعبر من ذاكرة الشعراء كحروف مهملة، وأنا أواصل البحث عن شاعر ليعيش في رحمي.. أنبته من تكويني.. يشتهي من جسدي صوت الناي، فأنثر على قدميه شلالات مشاعري، وأسقيه الماء من بين شفتي، فيلثم الحياة معطرة بلعابي، ويعانق روحي، فينتهل من أحلامي أطيافا تسامر العشق، تتراقص تحت المنهمر من وجه البدر..
أنتظر شاعري من زمن بعيد.. من أول يوم عرفت فيه طعم الحروف، ليغني لي ترنيمات وجعي..
أختزن له أشواقا ما مسها أحد، ما بذرتها لعاشق..
انتهكوا جسدي كثيرا، عبثوا بتكويناتي، صعدوا بي إلى ذرى الاشتهاء.. لكني ما وجدت بينهم شاعري الذي أنتظر.. !
ففرت.. تركت كل شئ إلى اللاشئ.. وهنا عند حافة الفناء، أراقص نصف قمر غبي، وأعانق الضياء الباهت الخامل، ولا أحفل بجسدي يترهل إهمالا، ولا بطيف وهمي لشاعر غبي لم يستطع الوصول إلى عمق روحي ليعلم كم أنا أحبه..
أنا لا أحفظ في ذاكرتي الآن غير طعم القرنفل، وصورة الأرنب الممزقة، ولطمات الذكور التي أنهكتني، ومزقت روحي، وصورة الزعيم المعلقة على جدران مدرستي.. ذلك الذي كان يحتويني بدفء نظراته.. ربما كنت أعشق الهزيمة التي كانت تقطر من ملامحه..
وربما كان هناك تشابه بين الصفعات، وصورة الأرنب، وهزيمة نظرات الزعيم، وذبول أزهار القطن، ولمسات الزوج الجنوبي المتسلط، وطعم القرنفل، ولون عيني الذي ما عرفته إلا من خلال همسات الشاعر الذي ما استطاع أن يحبني.. وبين مجادلة الشعراء لآلامي، وعبثهم بجسدي..
أنا ما خنت أحدا.. لأنني ما أحببت أحد.. هم كانوا يصرون أن يمارسوا معي لعبة العشق.. فكنت أزينها لهم.. ولما لا.. ؟
ألست أنا (زينة) كما كان يناديني بعضهم.. ؟ وأنا (زين) كما يدعوني زوجي الجنوبي، الذي تقتلني لمساته الغبية، تغتالني همساته، تقهرني نظراته التي تغتال حيائي.. وكأنه يعرف أن جسدي كان مستسلما لغيره منذ لحظات.. !
امتد الطريق أمام ناظري، حتى تعدى حدود اليأس، والملل.. فقط أردت الوصول إلى حافة الفراغ، لأراقص الألم منفردة، لأعانق الاغتراب، حتى يهديني إلى نبع الهذيان..
هزلت خطواتي.. والدموع التي تحتويها عيني لا تبوح سوى بسر عشقي لشاعر ما استطاع أن يغلف مشاعري بقوافيه..
نعم أنا (زينة) قاتلة الشعراء كما تدعون.. كلكم تعتقدون أني حق مكتسب لكم.. فتنثرون حولي كلمات الحب والغرام والخداع والكذب.. دائما تتخذوني مطية لأحلامكم وأوهامكم.. وأنا أبحث بينكم عن نغمة أستر بها عري روحي..
حين رحل فؤاد، تكورت بجوار الصخرة التي في أعلى الجبل.. تلك التي كانت تستر غرامنا، تكورت كالبناية القديمة المستباحة، وبداخلي علامات استفهام بحجم الحياة.. أنظر إلى قلب الظلام الذي ابتلع فؤاد بغطرسة قوته، والى البدر الذي يراقب كل شئ ويبتسم في بلاهة.. رفعت إليه يدي متضرعة، متوسلة أن يصطفيني نجمة، كي أراقب شاعري في ترحاله.. لم يأبه البدر بتوسلاتي، وظل يرمقني بنظراته البلهاء.. قررت الانتقام.. أخذت أترنم له وأغني..
(أيها البدر، يا أجمل ما في الوجود، أيها الشاهد على قصة عذابي.. أيها القابض على منابت أحلامي وآلامي، انتشلني من قيظ عمري، من بين لوعة الفقد والسراب..
أعرف أن عشقي يعربد بين تضاريسك الضوئية، يبوح بثمالة الطهر المتبقي في قاع عيني..
قد رحل شاعري، الذي بذرت أنت فيه ملامح وكلمات العشق، فاصطفاني زهرته، وكتب اسمه بضيائك تحت جفوني.. لكني الآن أشعر بحبك أنت يا واهب الحب لكل العشاق..
أحبك يا بدر السماء.. هكذا بكل الصدق، وبكل انفعالات ضيائك المعربد في ظلام روحي..
انه الحب يا قمري، لا يبقي ولا يذر غير ارتعاشة الجفون، بوح المآقي.. فدعني أبدد غبار السنوات من على ضيائك، دعني أبكي على صدرك، وأنثر دموع الماضي الأليم في حضنك.. طهرني يا قمري، انتشلني من دوائر الوهم الشقي، من قلب الوجع، من عنق الأشعار.. دعني أدخلك، أغردك، أغنيك.. أبقيك في روحي جمالا لا يفنى.. أحبك يا بدر.. بين المسافات التي يخنقها الحصار، وسط حياة تخنقها القيود..

أحبك بطعم عناق الشفاه، بصوت القبلات، بأنين الناي..
أدنو مني يا قمري، ضمني.. أنا خائفة، ضمني.. لتضيع صرخات الفزع بين شتات الزمان، وهلامية الحياة..
أدنو يا بدري.. سمائي مجدبة.. أشتاقك.. روحي متقوبة، ضمني.. دع النجوم تغني، دع السحاب يمطر فرحا، دع السماء تنبض عشقا طاهرا نقيا.. بعثرني بين ضيائك، يغسلني بهاؤك، أصير نغما يسكنك، يغوص في قلبك..)
استلقيت على ظهري، فتحت أحضاني أمام البدر الذي ارتجف من كلماتي العاشقة.. هوى بين ذراعي مخدوعا بهواي.. أطبقت عليه بكلتي يدي.. اختنق، صارعني للانفلات من قبضتي، انفلت نصفه إلى السماء، ونصفه الآخر استلبته بين أحضاني.. جريت به فوق هضاب الجبل، وما لبثت أن سقطت به في فوهة بركان خامد.. احتبست أنا ونصف القمر داخل قاع البركان، في بطن الجبل..
والراهب الذي كان يراقبني، ضحك ساخرا من نصف القمر، وتبول على ذكرياتي التي سقطت مني وأنا أصارع القمر..
حفر الراهب سردابا إلى بطن الجبل، حيث أنام، وبين ذراعي يرقد مستسلما نصف قمر..
التهب جبيني بالحمى، جسدي ينتفض من الظلام.. فزعت لظهور شبح الراهب من الثقب الذي أحدثه في جدار البركان.. ارتعشت، تخبطت بين الجدران الضيقة، ألقيت سؤالي..

- من أنت.. ؟ ماذا تبغي.. ؟
- لا شئ.. لا شئ يا بنيتي.. اهدأي.. أنا راهب الجبل، ألا تذكريني.. ؟ أنا المنبوذ من عشيرتك، المطرود من عائلتكم، أنا الذي كنت أرقبك وأنت تمارسين جمال الهوى مع فتاك، كنت ستركما.. أعيشكما قبلة، وعناق..

أسدلت ثيابي على نصف القمر، شددت عليه الوثاق الذي كنت أداري به انتفاخ بطني، كلما ازداد نمو الجنين بداخلي..

- ابتعد عني.. أنا أبغض كل شئ.. حتى الذكرى..
- قد رأيتك وأنت تصارعين البدر.. من تمتلك القدرة على شطر القمر تستطيع أن تصارع الحياة، وتشطرها..
- كان بدر أبله.. كل ما يستطيع فعله أن يزين ظلمة السماء برشفة ضوء.. يرقب العشاق باسما، ويسامر الظالمين، وسافكي الدماء.. قمر لا حول له ولا قوة، ومن ليس له حول يجب أن يشطر حتى الموت..
- البدر لا يموت.. حتى وان باعدت بين شطريه..
- سأقتله
- ليس دون ذنب..
- علم حبيبي الشعر فقتله..
- الشعر لا يقتل..
- الشعر مقتولا بين جوانحنا، قاتل في أيديهم..
- إذن اقتليهم..
- لا أستطيع..
- تنقصك القوة.. أنا أملك الترنيمات، وأنت تمتلكين نصف قمر، وجنين في أحشائك هو نبت الهوى والعهر، وجسد ينتفض رغبة في الانتقام..
- أنا..............
- لا تتكلمين.. لقد مر الزمان من فوق رأسي، وعلى تجاعيد وجهي، ومن بين قدمي.. صبغ لحيتي بالبياض الداكن، أحنى ظهري.. عمرا كاملا قضيته متجولا بين الحضارات المنهكة، في شوارع المدن الغريقة.. أبحث عنك.. عن امرأة تستطيع أن تشطر القمر..
- أنا.............
- كنت على يقين أني سأجدك.. والآن.. سنمارس سويا طقوس (البهاء المجرد) كي نعيد للجمال قداسته المؤلمة..

- البهاء المجرد.. ؟
- نعم.. هي طقوس تضئ القلب بعتمة أشد من نهاركم..
- أنت تخلط الكلمات.. !
- وأنت تشطرين القمر..
- أنا...........
- وأنا أيضا.. غريقان.. في انتظار جناح فراشة ينتشلنا من مر الهذيان..
- الهذيان.. ؟
- نعم الهذيان.. سنسلب الوعي من عقول ترتع في أوهام الشعراء.. سنصل بهم إلى حد الهذيان.. وهناك......
- أين.. ؟
- هناك.. عند حد الهذيان.. سيتوسلون للأكفان أن يحتويهم رحمها..
- أين.. ؟ لا أكاد أن أفهم حديثك..
- عند غابة الأكفان المعلقة.. عند الحد الفاصل بين الموت والانتهاء.. غابة الأكفان التي بنيتها من أنقاض الوهم الشقي.. أعددتها من آلام المقهورين.. صنعت أكفانها من رحم النساء المقتولات عشقا، اللائي أنجبن شعراء الألم.. غابة الأكفان.. المقر الأبدي لمن يصل إلى (حد الهذيان)..

غلفني الصمت / الوهن.. ارتميت عاجزة / شاردة..
جلس أمامي.. ونظارته السوداء تخبئ شراسة كلماته..

- أخرجي نصف قمرك من بين طيات ملابسك، وارسمي في جوف الظلام دائرة من ضيائه، وليكن قلب الدائرة حالك الظلمة..

يجب أن تتساوى المتضادات ــ الظلام والضياء ــ ثم اجلسي في قلب دائرتك الضوئية، في قلب الظلام، وارتقي بمشاعرك إلى قمة الكراهية، لتشعرين بعمق الحب..
ارقدي على ظهرك، باعدي بين فخذيك، تنفسي بعمق، تشبثي جيدا بنصف القمر.. والآن تمخضي ابن الهوى من جوفك.. اضغطي بشدة على أحشائك، بالقوة التي شطرت نصف القمر..
وازني بين المتضادات.. الحرية عبودية، الرقة عنف، الجمال قبح.. هيا هيا..
ستتركز القوة داخل دائرة الضوء منبثقة من عمق الظلام.. يتبأور بداخلك الآن جمال وقبح، خنجر وزهرة، خير وشر.. خير وشر.. هيا، خير.. هيا، شر، شر..هيا الخير، الخير، اخلطيه بكل الشر الذي قتل حبيبك، ومزق القمر نصفين.. كل الشر هيا..
الروح بداخلك تتحول إلى جسد.. القوة الضعيفة ستخرج من جوفك لتهبك قوة الخلود الأبدي.. هيا اصرخي بعنف الألم، تشبثي بنصف قمرك الغبي، واصرخي.. اصرخي، اصرخي..
ها هي الآن بين فخذيك، القوة الضعيفة والروح المكبلة بالحبل السري.. وليدك يصرخ، أتسمعين نغمات صراخ الوليد، أشهى من أشعار فتاك الأبله..
اجلسي يا زينة.. انظري إلى وليدك.. طفل الهوى الدنس، ابن الحب والزنى، ابن الجمال والقبح.. هذا الضعيف تكمن بداخله القوة الجبارة.. نذبحه بساق زهرة القرنفل.. تذوقي دمه الجميل، هيا تجرعي هذا الدم البكر، انه يحمل قداسة القوة المطمورة داخل الأجساد المهترئة.. تذوقي طعم عظامه الهشة، لحمه الطازج.. لا تخشين شيئا، فهو قد خرج من بين فخذيك وليد، وسيدخل في فمك قوة شهية، أتشعرين الآن بالقوة المتضادة.. ؟

- أشعر بالرغبة في التهامك أنت أيضا..
- البداية خوف، النهاية ألم، وما بينهما حياة زاخرة بالتضاد.. أدخلي الآن نصف القمر في فرجك.. سيعشقك كل من تقتليه.. فالضد يعشق ضده الضد..

تركني متكورة على ذاتي، دلف عائدا من حيث أتى.. وأنا لا أدري ما هذا الذي يحدث لي.. ! وكيف أجلس في جوف الظلام، وبداخلي نصف قمر.. !!!

في الصباح جاءني الراهب ثانية، أخذني إلى تل عالي، أرى من فوقه العائلة الكبيرة، وهم يمرحون بين الأزهار، ويجنون ثمار الأشجار..
وأنا أشعر بقوة تكفي لمواجهة العالم بأسره، أشعر بالبغض لأفراد العائلة، وبالحنين للهو معهم.. !
جلس الراهب وأجلسني بجواره، أخرج من بين ملابسه منديلا كبيرا.. فرشه على الأرض.. كان يحوي بداخله أجزاء صغيرة من العظام، وبعض الأصابع البشرية، وأحجار سوداء مختلفة الأشكال والأحجام، وبعض الجماجم التي بحجم كف اليد..
ثم أخذ يتلو تعويذات مبهمة، وأدخل الجماجم الصغيرة في فرجي، شعرت بالآلام، صرخت، اهتزت أرجاء المكان من صرخاتي، وخرجت من فمي أسراب من الجراد، هبطت على جنة العائلة، ما تركت فيها نبت أخضر، التهمت كل الأزهار، وأوراق الشجر، والثمار من كل لون، وصنف.. تركت الأرض جرداء، وأهلها يدورون حول أنفسهم، يتخبطون في هلعهم، وخوفهم..
والراهب يضحك ساخرا من ضعفهم وفزعهم، وأنا تتملكني مشاعر متناقضة، كالهذيان.. فرحة بما يحدث، كأني ألهو ببعض الدمى، وحزينة بما يكفي لقتل النفس كمدا..
والراهب ينظر في عيني، تقطر عيناه شهوة..
– طوال عمري أنتظر أن أضاجع امرأة في جوفها نصف قمر..
انتزع ملابسي، انتهك جسدي، تألمت وأنا في قمة المتعة، وتمتعت وأنا في شدة الألم.. لا أدري أضحك منتشية، أم أبكي متألمة.. أشتهي أم أتقيأ.. حتى فقدت احساسي بكل الوجود، وفقدت الإدراك ذاته..
حين أفقت كان الراهب قد اختفى، وأبناء العائلة الكبيرة يتضورون جوعا، يستغيثون بنصف القمر المتبقي في السماء، فيتولى عنهم باكيا.. حتى صاروا يقتلون بعضهم ليأكلوا لحوم قتلاهم.. فأبادوا أنفسهم..
ومضيت في طرقات المدن، أجوب السبل على غير هدى.. أبحث عن شاعري.. قابلت كل الشعراء، كل شاعر كان يدعي أنه شاعري.. يبثني هيامه وعشقه، يذرف كلمات الغزل بدربة الشعراء.. وكلما صدقت أحدهم، أجد غايته متعة الجسد، وتمزيق روحي، ليكتب قصيدة بآلامي، بدمي.. كلهم كاذبون.. كاذبون.. أرهقوني بأشعارهم، وخداعهم، وحبهم المزعوم..
أما فؤاد.. فقد كان حبه عنيفا، خانقا.. كان يريد أن يسجنني داخله، لا أرى وجها سواه، لا أعرف اسما غير اسمه، لا أحادث أحدا غيره.. قتلتني غيرته، حرصه الشديد على أن يكون دائما بين عيني..
لم أعد أستطيع أن أفرق بين الكذب والصدق، بين الحب والخداع.. وهكذا حتى وصلت إلى حد الهذيان.. هنا.. حيث الانتهاء المر..

***

ارتفع نشيجها.. بكاؤها يدوي بين أضلعي.. أخذتها بين ذراعي، ضممتها برفق، قبلت جبينها، طوقت عنقي، وأنفاسها تحاصر رقبتي، ضمتني بقوة الاشتهاء، همست بنغمات مثيرة، أعرف أنها تجيدها..

- أنت الآن على شفا حفرة هي الضياع الحتمي.. أمامك طريقان، مكتوب على أحدهما الهلاك.. وعلى الآخر السقوط الأبدي.. أتعرف أين أنت الآن.. ؟
- أظنني في قلبك.. !
- سأقتلك..
- لم أولد لأموت على صدر غانية..
- أحبك..
- أنا أيضا.......
- سأقتلك..
- لا أبالي.. أين ملامحك.. ؟
- خبأتها حتى لا يعرفني أحد.. ألقيتها في جوف كفني الذي يرتجف شوقا ليحتويني داخله..
- ماذا تنتظرين لتدخلي كفنك.. ؟
- ما زلت مترددة بين الموت والعدم.. وما زال قلبي يشتاق الارتجاف..
- وزوجك.. ؟

- سعيد الجنوبي.. ؟ هذا الرجل الذي فر من الدمار الذي حاق بالعائلة الكبيرة، بحث عني حتى وجدني، كان يشتهيني لدرجة الحب.. ربما لو كان شاعرا كنت أخلصت له.. لكنه ما كان يبغي سوى جسدي.. فكنت ألقيه له بلا مبالاة، وبكل اشمئزاز..
- ذكر اسمك (الآخر) قبل أن يدخل كفنه.. ؟
- جميل أن تسميه (الآخر) لأنه بالفعل كان آخر شاعر عرفته.. أحبني، وكانت له قدرة غريبة على اختراق النساء.. حتى أنني خفت بالفعل أن أحبه.. فهو الوحيد الذي جلست تحت قدميه أغسلهما، وملأت فمي بالمياه، وتجرع من شفتي حتى ارتوى.. هو الوحيد الذي جذب شعر رأسي لتهتاج مشاعر جسدي.. هو الوحيد الذي قال لي أن عيني بنيتان.. لكنه كان مثل فؤاد.. يريدني له وحده، وأنا لا أستطيع أن.....

قاطعتها صارخا بعنف.. :

- أنت عاهرة، داعرة.. زوج يحبك فتهرعين إلى عشق غيره، عشيق يحبك فتبحثين عن المزيد.. ماذا تريدين أيتها أل.......
- كأني أسمعه يحادثني.. صوته، انفعالاته، صرخاته، كلماته.. عاهرة داعرة.. آخر كلمتان سمعتهما من بين شفتيه..
- أكاد أن أتقيأ رؤياك.. أنا ما عرفت أن على ظهر الأرض توجد امرأة مثلك.. أنت.. أنت.. أنت كما قال عنك فؤاد: (لا يمكن لامرأة أن تكون أنت، أنت سر خادع في مراعي العهر، علقما طعمك يا زينة، علقما طعمك...
- لكني أحبك..
- وهل مثلك يعرف الحب.. أو تظنين أني قد أسقط فريسة لغوايتك..؟
- سأقتلك يا رجل..
- سأحبك حين يحدث ذلك..
- إذن ضاجعني..
- أبدا لن أروي شبقك من جسدي، لن أبذر مائي داخل تجويف امرأة تحمل كل هذا الكم من الدناسة..
- بداخلي نصف قمر.. هل ضاجعت امرأة غيري بجوفها نصف قمر.. ؟
- نصف قمر أبله.. ما أراه داخلك عهر عفن.. أعرف عنك كل شئ يا زينة.. كل شئ..
- لماذا إذن خدعتني.. ؟
- هكذا وجدت حياتكم.. فمارستها كما تحبون.. حين كنت سجينا وسط جبال الملح، وعلى الرغم من الظلام الذي كنا نعيشه، لكن كان كل شئ واضح.. والصمت الذي يجثم على رؤوسنا يلغي صفة الكذب التي تعبدونها..
- سألت عنك كثيرا.. لا أحد يعرف عنك شيئا..
- ولن يعرف أحد عني شيئا..
- أين جبال الملح هذه.. ؟
- لا أدري.. بحثت عنها كثيرا، حتى ضلت خطواتي فأحضرتني ها هنا..
- هل عرفتني حين جئت.. ؟
- يفضحك دائما عطرك المجوسي..
- لماذا آلمتني.. ؟
- حين قابلتك كنت أعرف عنك الكثير، وكنت سأغفر لك كل شئ لو وجدتك صادقة..
- أحببتك بصدق..
- وهذه كذبتك المفضلة.. ولذا هرعت إلى عتبات أول شاعر عربيد قرأت كتابه التافه.. !
- كنت أريد........
- كنت تريدين مزاولة خداعك.. تخدعينه، تخدعينني.. أنت تخدعين كل شئ.. ماذا أرضعوك أيتها الغانية..
- ضمني.. أشتاقك..

- خداع آخر..
انتفضت مذعورة، صرخت..
- أنظر.. أنظر..
حيث أشارت، رأيت الكفن الذي يحوي (الآخر) ينتفخ.. يتمزق.. يسقط منه (الآخر) على الأرض.. ينتصب متحفزا، يهرول نحوي، يخنق رقبتي وهو يصرخ..
- ابن أي شيطان أنت.. ؟
تملصت من يديه.. سقط على الأرض يبكي..
- رفض الأموات استقبالي بملامحك العفنة.. رفضتني الآخرة كما رفضتني الدنيا سلفا.. سألوني من أي نسل أنت.. ! احتار جوابي.. حتى الجحيم رفضوا أن يدخلوني إليه.. ! قالوا أن هناك حد للآثام.. أما كل هذا الكم من الخطايا التي تحملها ملامحك، فلا يستطيع الجحيم أن يستوعبها.. !
خذ ملامحك الملعونة.. فقد ظننت أنها قد تريحني من عبث الوجود الوهمي، من هذه الحياة الزائفة..
ألقى ملامحي على الأرض، تهافت عليها العازفون.. مزقوها كأوتارهم، رضي كل منهم بجزء، ارتدوها، غنوا للموت أناشيد الترحاب..
- من أنت يا رجل.. ؟
- في بلادنا من يقترب منه الموت يلقونه في جب تسكنه أفعى عملاقة.. بلادنا ليس بها مساكن، ولا توجد بها مقابر..
- احكي لي.. أنا شغوف لمعرفة كل شئ عنك..
وزينة تنظر إلى الكفن الأسود، شاردة، خائفة..
- ماذا أحكي لك.. هل أحكي عن أول صرخة أطلقتها، بعد ما لفظني رحم أم لا أعرف ملامحها، ولا طعم ثدييها.. لم أذق دفئها، ألقت بي وحيدا في بلد كل من فيه منفرد بذاته.. لا تآلف، لا تعارف.. بلد في عزلة عن بقية البشر.. لا ندرك شيئا غير الظلام المنتشر حتى لا تدرك أن لك عينان، وطعم الملح يوحي بأنه لا يوجد في الحياة مذاق غير المرار..
أنا ابن بلاد الملح والروائح العفنة.. نشأت فوق أرض رطبة، لا تنبت زرعا، ولا ديارا.. أرض لا تحمل سوى العراء الشاسع، والهواء العطن، والظلام الدامس.. هكذا وجدت نفسي في رحم السواد، وجبال الملح الصلد تلتف حولنا، دائرة بطعم الأصفاد..
والغياب يلف رؤوس القوم، الخاضعون دوما لمشيئة الحراس الذين يملكون السيطرة، يبصرون ما هو بعيد عن ظلامنا، يعلمون الأسرار، ويستطيعون بمهارة وقوة إحكام القيود على الأرواح والمشاعر..
لم نكن نؤمن بشيء، لأننا لا نعرف شيئا.. فقط كنا نخاف.. نخاف الحراس الذين يملكون القدرة على إصابتنا بالألم، نخاف الأفعى التي تسكن البئر الجافة، تلك التي كانوا يلقون إليها بنصف طعامنا، وبالمسنين الذين اقتربوا من عمر الموت، وكذلك كل من اشتكى ألما..!
وجبال الملح تحاصر المكان بإحكام.. تعلو قممها حتى تكاد أن تتلاقى عند حواف السماء.. فلا نرى شمس تشرق، ولا قمر يبزغ..
بلد على هيئة خيمة كبيرة بحجم نصف الكون، دائمة الظلام، فلم يكن من الممكن أن نرى الأرض، أو حتى ملامح أنفسنا..
لا نرى سوى نجم واحد.. يسامرنا أحيانا، ويسخر مني في كثير من الأحيان.. نجم واحد يطل علينا من خلال كوة صغيرة بين قمم جبال الملح، تكفي بالكاد لمرور رأس رجل دون جسده..
كوة صغيرة.. لم تغلفها قمم الجبال لتوهمنا بأمل الإشراق، أو ثقبها ذلك النجم ليرقب ليلنا الطويل..
هكذا أنجبتني امرأة في أحضان جبال الملح.. وسط الظلام، والأشباح الذين يشبهون البشر..
لا أدري من أرضعتني، ولا أستطيع أن أذكر ملامح أي وجه، غير وجه الظلام، والنجم الساخر من استكانة القوم..
حين استطعت السير على قدمي، كنت أتعثر في قطع الملح المتحجرة.. فأسقط على النساء المرضعات.. تعلو صيحاتهن، فأبتعد خوفا أن تصيبني لطماتهن التي كانت تحرق وجهي.. فتتلقفني امرأة كنت أسمعها تبكي كثيرا، تضمني حتى يهدأ خوفي.. كنت أظنها أمي..

حتى عرفت أنها مريضة، وضعوها في وادي المرضعات حتى يتم شفاءها، أو تلقى في جب الأفعى..
ومر الوقت، حتى اشتد عودي، نقلني الحراس إلى وادي الأولاد.. في أول يوم استقبلني من هم أكبر مني عمرا، أرادوا أن يجعلوني مطية لذكورتهم.. هرعت، اختبأت، لاحقوني، جثموا فوقي، كورت قبضتي، أرسلتها بكل ما أملك من قوة، اصطدمت بوجوههم التي تحوطني.. انهالت ركلاتي وقبضاتي ولطماتي على أجسادهم.. فروا منهزمين، شعرت لأول مرة بزهو الانتصار..
لاذت بقوتي البنات.. طلبن حمايتهن من فحش الأولاد..
والأولاد حين اختبروا شراستي في القتال توددوا آلي..
- سنأتيك كل يوم بطعامك وشرابك، واختار لك فتاة أو اثنتان، ودع لنا الباقيات..
- وما حاجتي لفتاة، وما حاجتكم إليهن.. ؟!!
سخروا من سذاجتي..
- كنا نحسب فحولتك تعادل قوتك في الشجار.. !
وتضطرب خواطري في تفسير كلمات أسمعها لأول مرة، تعني كلها الذكورة، دفء الجسد، الملامسة، العناق، الشهوة، الارتعاش..
وأحضروا لي فتاة.. شعرت معها لأول مرة بمتعة الملامسة، متعة الالتصاق التام، القبلات، المعانقة، وال...............
طمعت أن أستحوذ على كل الفتيات، بعد ما اكتشفت أن كل فتاة تتمتع بمذاق رائع، غير مذاق الفتيات الأخريات..
انتبهت إلى ذلك المربيات، كان عقابي تحديد إقامتي بجوار امرأة تبكي كثيرا.. حين احتوتني بين ذراعيها، تلمست منها مشاعر دافئة، حانية..
أكانت هي أمي.. ؟
ولما لا.. ؟ فقد كانت تناديني (يا بني)
لكني سمعتها تنادي بقية الأولاد بنفس اللفظ.. ففقدت خصوصية النداء..
وحين اشتد مرضها، حملوها إلى جب الأفعى.. بكيت، عرفت كيف أنزف الدمع، ذقت الألم الذي يطيح بالفكر، بالمشاعر.. عرفت طعم الوجع، قسوة الفراق..
وحين بكى الأولاد الآخرين لرحيلها، فقدت حتى خصوصية الألم..
وكثرت مشاغباتي، ومعاركي مع الأولاد، حتى ضاقوا بوجودي وسطهم.. فوشوا بي إلى الحراس..
- انه يملك قوة كبيرة، جسد ضخم، يضربنا كثيرا، ويضاجع الفتيات الصغيرات بالعنف، والقهر، و........ و..............
وحملني الحراس إلى وادي العمال، لأزاول العمل مثل بقية القوم.. أنحت في جبال الملح بأظافري، أملأ جوالين، تحملهما امرأة جعلوها رفيقتي، إلى سرداب يمر من أسفل الجبال.. يقايض الحراس أجولة الملح باللحم، الذي يعطون نصفه للأفعى التي تسكن الجب، وأكثر ما يتبقى يأخذه الحراس الذين يمسكون بالهراوات المؤلمة، وما يتبقى يجففونه بالملح ويعطونا إياه..
نأكل اللحم بالملح، ونتنفس الهواء بالملح، ونشرب الماء بالملح.. حتى أجساد النساء، كانت بطعم الملح..
والأشباح الذين على شاكلة البشر لا يعرفون شيئا غير دورهم في نحت الجبال، ولا يحاولون فعل أي شئ سوى ملأ جوالين من الملح..
كل رجل خلفه امرأة، يملأ الرجل الجوالين، تحملهما المرأة إلى السرداب الذي تتم فيه المقايضة..
وعلى ضوء الشعاع المتسرب من النجم الوحيد، كنت أتأمل تضاريس جبال الملح.. كنت أحلم بأن أتسلقها، لأقبض على ذلك النجم الذي ينظر من الكوة، ويسخر مني.. حتى استطعت يوما أن أتسلق نتوءات الجبل، وحين حاولت أن أقبض على النجم لأدخله تجويف الظلام، وجدته أبعد مما كنت أظن.. ووجدت الفجوة التي بين قمم الجبال ضيقة، أخرجت رأسي منها بصعوبة، شاهدت القمر.. أجمل شئ في الوجود.. أحببته، عشقت ضياؤه، وأحببت النجوم التي تسامره، مكثت حتى غاب القمر، رأيت إشراق الشمس، رأيت النهار، الفضاء الجميل، البحر، عشقت موجه، زبده، ورائحة اليود التي ينثرها، وتحملها النسائم إلى مختلف الاتجاهات..

فكان حتما أن أهرب، أن أفر من الظلام، ورائحة العطن، وطعم الملح، والأرض الرطبة.. إلى حياة تزخر بالنجوم، وبالقمر، وبالنهار......
ووضعت خطتي..
حان دوري لملأ جوالين الملح.. ملأت الجوال الأول.. حملته المرأة إلى السرداب، وفي غفلة من الحراس الذين كانوا يستطيعون أن يروا كل شئ حتى في الظلام، استطعت أن أدخل الجوال الآخر، وحملتني المرأة، ألقت بي فوق الأجولة الأخرى.. ساعدني كثيرا الظلام، ورائحة العطن، والملح الذي يصطبغ به جلدي.. فلم يلحظ أحد شيئا غير المعتاد..
وتمت المقايضة، أغلق الحراس السرداب.. خرجت من الجوال حين شعرت بالضوء يتسرب من مسام الجوال..
رآني تجار الملح، فزعوا من لون بشرتي الأزرق، ومن طول قامتي، وضخامة جسدي، ودمامة ملامحي..
قفزت من فوق أجولة الملح، جريت على غير هدى.. لا رغبة عندي سوى معانقة الضياء، لون البحر، أمواجه، القمر، نجومه، الشمس، نهارها، الفضاء الشاسع الجميل، وتنسم روائح الحياة..
ظللت أجري، أجري.. حتى أسقطني الإعياء.. حين أفقت من غيبوبتي، وجدتني فوق رمال ممتدة في كل اتجاه، الشمس تقف بتكاسل قبل الغياب، السماء بها زرقة داكنة.. بجهد شديد لمحت بين اصفرار الرمال نقطة سوداء، خيل لي أنها تتحرك.. حاولت النهوض، آلمتني ساقي..
وكأن رأسي صفحة بيضاء لم تخط فيها الذكرى بقلم، نسيت كل شئ، كل ما كان.. متجرد من كل شئ حتى من ملابسي..
أدرت وجهي في كل الاتجاهات، لعلني أرى شيئا يهتدي آلي، أو أهتدي إليه، فلم أر غير النقطة السوداء، وقد بدأت تنمو، وبدت بالفعل متحركة.. حاولت أن أنتصر على آلام ساقي حتى نهضت، وحين هممت أن أتجه صوب ذلك الشيء الأسود، الذي بدأ يتشكل بالشكل الآدمي، تنبهت إلى أني عاري الجسد..
لم أدر أين أختبئ.. وهو يقترب مني، فاهتديت إلى أن أحفر في الرمال لأداري جسدي..
حتى اقترب أكثر فتبينت أنها امرأة تغطي جسدها برداء أسود، ذات شعر حالك يصل إلى ما بعد تكورها، وجهها مألوف، كأنني رأيتها من قبل، لكن كيف، متى، أين.. ؟ لا أدري..
ركعت أمام وجهي، حيث أنني كنت قد دفنت كل جسدي في الرمال، وكان وجهها ذو صفاء عجيب، عيناها واسعتان، مسحوبتان لأعلى، تجحظان قليلا.. قالت وهي تتأمل وجهي..
- من أنت.. ؟
أسقط في يدي أني نسيت كيف أتحدث.. حاولت أن أرسم لها إشارات لعلها تعي ما أريد قوله.. (أنا نسيت كيف أتحدث)، ربتت على كتفي وقالت..
- حسنا.. هات يدك..
نظرت إلى يدها الممتدة نحوي، بدون تفكير وضعت يدي على كفيها، تفحصت عينيها، قديمتان، تمتلئان بخصب السنين..
شعرت بخروجي من حفرة الرمال، وكأني أطير في الهواء.. وقفت على الرمال، تذكرت أني عاريا.. واريت سوءتي بكفي.. سألتني..
- من أنت.. ؟
والرداء الأسود ينحصر من على فخذيها، فيبدوان بلون الفجر الندي.. أشرت إلى فمي أني لا أستطيع التكلم.. قالت تعلمني..
- ما عليك إلا أن تفتح فمك فتتحدث.. !
لمعت عيناي، بدوت كمن وجد حلا لمعاناة.. انفرجت شفتاي، وجدتني أقول..
- عجبا.. ! أقصد.. أين أنا.. ؟
أدارت لي ظهرها، سارت أمامي خطوة..
- هيا.. سر خلفي..
بدأت أنقل خطواتي خلفها بتمهل، تجاه الشمس الغاربة.. والرمال لها ملمس الإسفنج الرطب.. سألتها..
- من أنت.. ؟

وقفت واستدارت. ألقت نظراتها تتفحص جسدي العاري، سقطت في هوة الحياء.. قلت وقد غلب التوتر على صوتي..
- لا تنظرين إلى جسدي..
بأناملها دفعت الرداء الأسود، سقط عن جسدها، بدا عاريا، جميلا، بلون اللبن إذا خالطه القليل جدا من الدم.. قالت..
- لماذا جئت.. ؟
حاولت أن أبحث عن ذاكرة لدي، فلم أجد..
- لا أذكر حتى أين كنت.. !
- ألا تذكر أي شئ.. ؟
قلت بدون تردد
- لا.......
- وما وطنك.. ؟
ارتعدت فرائسي، انهد كياني.. وقفت شاردا، والصمت الثقيل يجثم على صدري..
- تذكرينني بأمي.. أتدرين بأني لا أعرف ملامح أمي..
- لا جدوى من ذلك الآن.. لا جدوى..
سارت، سرت خلفها، حتى انشقت الأرض عن بناية حجرية ضخمة.. شاهقة الارتفاع، على هيئة مثلث قاعدته على الرمال.. لها باب ضيق، دخلت منه.. ترددت في الدخول خلفها.. حتى سمعت صوتها يأمرني بالدخول، فدخلت بسرعة لم أعهدها في نفسي.. !
اصطدمت بالظلام، لم أعد أرى شيئا، والقشعريرة دبت في أوصالي، رفعت يدي مخافة الاصطدام بشيء، لمست جسدها.. قالت..
- خائف.. ؟
كنت أقاتل الكلمات لتخرج..
- أين نحن.. ؟
سمعت صوتها كأنه آتي من آخر الزمان..
- في داري..
حاولت أن أنظر خلفي، كان الظلام قد أغلق كل منافذ الرؤيا، فلم أستطع تحديد الباب الذي دخلنا منه لأفر.. تقدمت خطوتان، اصطدمت بها، تشبثت بجسدها التصاقا.. كان باردا، ثلجيا، دون حراك.. مررت بيدي على رأسها، أحسست بشعرها له ملمس الأشواك.. بعد برهة، سمعت صوتها من خلفي يضحك..
- ماذا تفعل.. ؟
التفت، رأيتها تقف خلفي وقد أوقدت شمعة.. ! تردد بصري بينها وبين من كنت أحتضن.. ملأني الرعب.. أخذت رأسي بين ساعدي، جثوت على ركبتي..
- ماذا بك.. ؟
نيران تنسكب في حنجرتي، قلت وأنا أرتعد..
- تذكرت أن أمي ماتت، ولم أبك..
جلست جواري، رفعت الشمعة بجوار وجهها، انعكست الأشعة الخافتة على نهديها، فأشعا ما يدعو لدفن الوجه بينهما.. لامست أناملها شعري.. هممت أن أحتضنها، مانعت برفق.. قالت..
- كانت أمي مقعدة، مشلولة الرجلين، وأبي مريض بالوهم.. كل مساء يحمل صينية مرصوصة عليها الأكواب فارغة، وزجاجتان مملوءتان بالمياه، ويجلس بجوار أمي.. يملأ كوبا بالمياه ويقدمه إليها، تبتسم وتقول..
أنها لا تحب الخمر..
فيتجرع هو كوب الماء ويقول..

أنها أقدم خمر في التاريخ، وأنها ميراثنا الوحيد، وأن فرعونا سقاها لشعبه فبنوا له هرما، وآخر سقاها لأبي الهول فجثا على ركبتيه صامتا حتى الآن..
ويضحك أبي، ويتجرع كوبا آخر من المياه.. فتهمس له أمي أنها جائعة.. فيتوهم السكر، وينهض مترنحا.. تشكو أمي جوعها، يسقط من ترنحه، يتوهم النوم.. ينام..

- وأين هما الآن.. ؟

قات وهي تستند برأسها على كتفي..

- حين طال وهم أبي، جفت أمي حتى الموت.. أما أبي.. فقد توهم الموت حتى مات..
- وهل بكيت.. ؟
- لا.. قد نسيت..

شردت نظراتنا في الظلام، اغتال الصمت حروفنا، حتى غمر صباح المكان بأسره، فوجدتني أجلس جوارها على صندوق خشبي مستطيل الشكل، نستند إلى جدار حجري عتيق..
على الجدران المحيطة بنا، بدت نقوش عتيقة، ملونة.. تمثل رجال في أوضاع جامدة.. سواء القائم منهم أو الجالس، أو الساجد..
وفي منتصف الجدار المواجه لنا، نقش كبير لرجل يضع على رأسه تاجا طويل، ويقف شامخا.. يطل الجبروت من حدقتيه.. ممسكا بصولجان في يمينه..
نهضت من جواري، سارت نحو الجدار، تأملت نقوشه بخشوع.. تحسست الصولجان بأطراف أناملها، ومرت بكلتي يديها على التاج، اقتربت منها.. تأملت الألوان العتيقة.. قلت شاردا..

- لماذا كلما نظرت إلى المرآة لا أرى وجهي.. وحين رأيته مرة ، كان مشطورا نصفين.. نصف لا أعرفه، ونصف لا أبغيه.. ؟
- لأنك ابن الظلام..
- ما اسمك.. ؟

وكأنها تنبهت إلى شئ قد نسيته من زمن بعيد..

- اسمي.. ؟ وما جدوى الأسماء حين ينتفي النداء.. ؟

اقتربت من الباب الذي يطل على الصحراء.. نظرت إلى الشمس التي صارت في وسط السماء، عادت وهي تصوب نظراتها إلى باب حجري وسط الجدار المواجه للمدخل.. قالت..

- بعد قليل ستبدأ رقصتي..
- لماذا لا تبدئينها الآن.. ؟

قالت واجمة..

- حرام على غير مولاي أن يرى رقصتي..
- وأين مولاك هذا.. ؟
- في التابوت الذي كنا نجلس عليه..

نظرت إلى الصندوق الخشبي.. اتجهت إليه، مررت بيدي على غطائه، حاولت أن أفتحه.. دوت صرختها..

- لا.. لا تفتحه..
- لماذا.. ؟ مما تخافين.. ؟
- –أريد أن أرى مولاك هذا الذي يفزعك هكذا..

رأيت الدموع تترقرق في عينيها.. طوقت عنقي بذراعيها، قالت برجاء..

- لا تفتحه، سأريك رقصتي..

حين لامست صدري بنهديها، انتصبت غرائزي، تأججت شهواتي، احتضنتها بشدة، حاولت تقبيل شفتيها، فتأوهت، وتأودت، وتمنعت، وتملصت، وفرت إلى الباب الحجري الموصد.. فتحته، دلفت منه..
وأنا أصوب نظراتي إلى التابوت الخشبي.. كان واضحا أنه مر عليه زمنا طويلا.. مالت أخشابه إلى السواد، اتجهت إليه بفضول، أريد أن أرى وجه مولاها هذا الذي تتحدث عنه وترهبه هكذا..
مددت يدي إلى غطائه، فتهادت إلى سمعي أصوات موسيقية، وصوتها يدعوني للدخول إلى..

كانت تقف على أرض خشبية، مرتفعة قليلا، مسترخية الأعصاب، تملأ صدرها بالهواء، تشب على أطراف قدميها، وتدور.. تدور.. تدور.. ثم تنطلق في الهواء طائرة..
لحظة مفارقة قدميها للأرض، خلتها النجم الذي كان يطل علينا من بين جبال الملح.. أو طائر النورس الذي رأيته يحوم حول أمواج البحر..
تحررت من أرضها، لا ترتكز على شئ، تسبح في آمال، تتغنى بأنشودة للعشق الأبدي..
تدور في الهواء بانطلاق لا يحده شئ، ثم تهبط بقوة إلى الأرض الخشبية، أصعد، أتلقاها بين ذراعي، تتلوى بين أحضاني، تتراقص كانسيابية المياه في مجرى النهر، تطوق عنقي، أضمها بنشوة، أقبلها بعنف.. تبتعد، تعدو إلى الباب الذي دخلت منه، أهرع خلفها..
أراها ساجدة تحت صورة الرجل الذي يقف شامخا في منتصف الجدار، أحاول أن أمسكها، أجدها لا تمسك..!
قد صارت نقشا ساجدا تحت قدم الصولجان.. !!
هرعت إلى التابوت.. فتحته.. كان خاويا إلا من رائحة الموت.. !
هرعت إلى خارج البناية الحجرية، وجدت الصحراء خاوية إلا من الرمال بلون الموت.. !
دخلت مسرعا.. اصطدمت بالجسد البارد الثلجي.. تراجعت مذعورا، حين تبينت انه أفعى عملاقة.. يسكنها الموت، أو تسكنه.. !
عدوت بقوة الرعب الذي سكنني.. انطلقت فوق رمال الصحراء، بدون هدف سوى الفرار..
حتى أجلسني الوهن تحت شجرة على مشارف قرية صغيرة، تطل على بحر أوسع من آمالي، وكانت بداية مغامرة الخروج من اللارشد، إلى الوعي المحفوف بمخاطر المعرفة..

***

بدأت أستشعر دفء الشمس.. عرفت الألوان، عشقت اللون الأبيض، وأذهلني اللون الوردي..
شممت للحياة روائح أخرى غير الملح، والعطن..
رائحة الأشجار، الأعشاب، الأزهار.. رائحة ضياء البدر، وشدو الطيور، الصخب، والموسيقى، والمصابيح الملونة.. رائحة البحر، أمواجه، زبده، النهر، سكونه، وداعته، عذوبته.. رائحة الغناء، والقلب يتراقص على إيقاع الشدو الجميل..
تجولت في الطرقات فرحا بالضياء الذي يغمر البلاد، وأني أستطيع أن أرى وجوه البشر باختلاف أشكالها..
حتى ارتدى النهار ظلام النهاية..تقوقعت وحدي تحت ظلمة السماء.. والأشباح تحاصرني، تجلجل كأصداء الخوف في أحشاء العتمة.. هرولت في كل الاتجاهات، حتى وجدت حجرة مبنية من أنقاض جبل منهزم.. على مشارف بحر مضطرب، ونهر لا يحمل سمات الحياة، وبابها مفتوح باتجاه السماء..
حجرة تملأها النجوم التعسة، كاليمام المقتول في غير أرضه..
وعلى الرغم من ذلك قنعت بالحجرة التي وجدتها.. حجرة ذات ثلاثة جدران، ثلاثة نوافذ.. تكفي بالكاد لارتماء جسدي على أرضها، تتوازى مع جبل ينهار، وبحر لا ادري لثورته سببا، ونهر مقتول.. !
حجرة ضيقة تقتل الأحلام، تستدعي الكوابيس لتتراقص في لحظة محورية بين يوم ساكن، وأمس غاضب، وغد بلا هوية يأبى أن يأتي بسلام.. !
سقط جسدي بغير اختيار من هضبة الآمال المستحيلة، في جب الرغبات المنتحرة.. وتسللت نظراتي عبر الباب المنفرج باتجاه السماء، تبحث عن نصف القمر الذي اختفى فجأة.. !
وحين صعد النهار، أعلن للملأ عن وجودي في غير مكاني.. والجبل قد تراجع منهزما من سطوة آلات الهدم، والبحر قد سكن في رعبه، والنهر كما هو.. غارق في موته..
وأصحاب النظارات السوداء يحاصرون الحجرة المثلثة، يشير إلى كبيرهم..
- من هذا الحثالة.. ؟ ومن سمح له أن يسكن هذا المكان.. ؟
انغمست في خوفي، جرجروني إليه..
- أيها الغبي.. لقد أعددنا هذا المكان لإقامة شعار حقوق الإنسان.. أننسف نحن الجبل، ونقتل النهر، ونجثم على أنفاس البحر، لتحتل أنت القاعدة المعدة لإقامة التمثال عليها..؟

- لا يوجد مكان غيرها يأويني.. ؟
- اصرفوه من هنا.. أو اقتلوه.. لا أريد أن أرى وجهه البغيض هذا مرة أخرى..

مضغت مرارة الهجرة.. من ليس له وطن لا يملك حق الذكرى، لململت بعض النغمات التي تغني الهزائم، وامتطيت التجوال في بحار الغربة، أرقب النجم ذاته الذي كان يرقبني، وقت انتحار الطيور في حلم يتردى بين الأمس.. والأمس..

احتواني الظلام، البرد، الاغتراب، الصمت المقيت..

والحروف تنفر من دمامة ملامحي، فتتجاذبني جهات الأرض، أسلك سبلها متمزقا بين معاني الحياة، تلك التي تقايض أنفاسي بابتسامة بلهاء من على وجه نهار يفر مرتبكا من بين شجرتين، تفسحان له سبل الفرار، قبل أن يهزمه الليل/ الظلام..

***

اهتزت الأكفان على صوت الذكرى الممل.. زينة ترقد على صدر (الآخر) الذي غلبه النعاس.. نهضت تراقص الجراح القديمة، تحتضن أوجاعي، وتدور بها بين الأكفان المعلقة على آلامي..

والعازفون رقدوا على أرض مفروشة بالأحلام المختنقة، ينفذ شخيرهم بين مسام الأكفان المرتجفة..

اقتربت زينة، قبلت شفتي، عانقتني.. بكيت.. انزلقت دموعي على وجهي الذي لا يحمل ملامح الإنسان..

- أحبك..

نفذ همسها إلى قلبي.. أشعل الشوق، وذكرى الاشتياق..

آه يا زينة لو تعلمين قدر الحب الذي كنت أكنه لك.. لو تعلمين ماذا كنت أدخر لك.. ؟ كنت أجمع كل ما تهوين من جمال الكون لأغزل منه فستان عرسك، بعد ما وعدتينني بأن تتركي زوجك الجنوبي الغبي.. لكنك ما أحببت أبدا.. فقط كنت تبيعين الحب بهمسات الشعراء القادرين على صياغة آلامك المزعومة قصائد.. !

بذرت حبي ومشاعري تحت قدميك، ركلتيها عند ظهور أول شاعر تافه، لا يستطيع حتى نظم قوافيك.. !

نعم خدعتك.. نعم آلمتك.. لأني كنت أعلم أنك تخدعينني.. وأنا لا أحب الهزيمة.. بادرت بخيانتك، قبل أن أصبح من ضحاياك، كزوجك، وكل عشاقك السابقين..

- لماذا تركن إلى الصمت.. ؟
- اذهبي إلى رقصتك.. لعلك تخدعين نصف القمر الباقي، فتستلبين كل الضياء.. لكن يا زينة كل ضياء الكون لن ينير في جوفك سوى العفن..
- أنت تظلمني كثيرا.. أنا أحببتك حقا.. !
- أقسم أن الحب لو مس قلبك يوما، لعرفت كيف تلفظين كلمة الحب بما تستحقه الكلمة من احترام، وقدسية..

ألقيتها عن كتفي، زحفت حتى التصقت بـ(الآخر).. احتضنت جسده الغافي باشتهاء..

***

رحـــــــال

والآن يا بن بلاد الملح هل تذكر.. كيف دار بك الرحيل حتى وصلت إلى تلك البلدة الفقيرة، علـــى مـــشارف البحر القاتل، وتجولت بين حواريها.. ونظرات الناس المتوجسة تؤلمك..
لأنك عاري الجسد.. ؟
أم لأنك أزرق البشرة.. ؟
ويلتف حولك الصبية ضاحكين، هازئين، صائحين.. :
- رجل أزرق عاري..
يكثرون حولك، تخافهم، يرشقونك بالحجارة، تؤلمك، تتوجع، تجري، يعدون خلفك، تعلو صيحاتهم..
- الرجل الأزرق العاري، المجنون..........
تسرع خطواتك، تسابق الألم.. أين تعلمت كل هذا الفرار.. ؟
وتسابقك حجارة الأولاد، تصيب منك الرأس، والظهر، والقدم.. تسقط.. تتكفئ على وجهك.. يهزمـــك الألـــم، وضحكات الأولاد.. تبكي حزنا ؟ ألما ؟ هما ؟ أم اغتراب عن بلاد الملح والعفن التي لـــم تكـــن بكـــل هـــذه القسوة.. ؟
ويسيل من وجهك، ومن أجزاء جسدك اللون الأحمر.. كم يكون بغيض هذا اللون حين يقترن بالألم..
وتنهض لتزاول مهنة الفرار من كل شئ، وقد صارت لك خبرة عظيمة في كيفية الفرار.. !
حتى وجدت دارا كبيرة.. يقف فيه الناس متصافين، خلف رجل يعو صوته..
- الله أكبر..
ويردد القوم خلفه نفس الهتاف، وأنت تتعجب من ركوعهم، وسجودهم، وسكينتهم.. ومن الأولاد الذين وقفـــوا خارج الدار، لا يستطيعون الدخول إليك، أو قذفك بأحجارهم المؤلمة..
والرجل الجالس أمام الصفوف، ينظر ناحية اليمين، ثم إلى اليسار..
- السلام عليكم ورحمة الله..
يرددون خلفه السلام.. تغمرك الفرحة، طمأنينة عجيبة تدخل قلبك.. هؤلاء قوم تحيتهم السلام، يلتفتون إليـــك، ينهرون عريك ! يستعيذون من لونك الأزرق !
تلملم ذاتك التي كادت تسبح في آمال الأمن.. تنكمش في قعر نفسك، تضطرب رؤاك وهم يحوطونك بنظرات فضولية، تخدش حياءك..
من عريك، أم من لونك.. ؟
والأولاد في الخارج يصيحون:
- رجل أزرق هبط من الفضاء.....
- شيطان.. انه شيطان.....
ويخترق الجمع رجل أحدب، يبتسم في وجهك، تطمئن قليلا، يهديك جلبابا، يلبسك إياه، يـــدعوك للنهـــوض.. تسير معه إلى داره.. يحميك من حجارة الأولاد، وأسئلة القوم، ونظراتهم التي تمزقك..
في منزله عند أطراف القرية الصغيرة، على حدود البحر الأوسع من خيالك، عرفت منه معاني الحيـــاة التـــي فررت إليها باختيارك، وليتك ما فعلت..
- أنا اسمي عبد المقصود.. خادم المسجد الذي أويت إليه.. هل تستطيع الكلام.. ؟
كان الخوف قد تساقط منك حين شعرت بطيبة الرجل، حين رأيت ابتسامته، بشاشة وجهه.. غـــرب الخـــوف كذلك النهار الذي رأيته يغرب خلف الأمواج الثائرة..

- نعم أنا أتكلم مثلكم.. لكن هؤلاء القوم لم يدعوا لي فرصة للحديث..
- من أين أنت قادم.. ؟
- من بلاد الملح.. عبر السرداب الذي يخترق أسفل الجبل..
- بلاد الملح.. ؟ نعم، نعم أذكر أني قرأت شيئا عنها..
- قرأت ؟ وما معنى قرأت.. ؟
- أترى هذه الكتب.. ؟

وأشار إلى تلال من الكتب منسقة بعناية على الأرض..

- أنها تحكي عن كل شئ.. تاريخ الأمم والحضارات السابقة، جغرافية الأماكن، علم الجمال، الشعر، الروايات، الموسيقى.. تحكي عن الألوان، الروائح، وكل علوم الكون.. سأعلمك القراءة والكتابة، ولغة تنسيق الحروف، بعد أن تحكي لي عن بلدك تلك.. بلد الملح..

وتردك ذاكرتك إلى منبتك، نشأتك.. حين كنت لا ترى من الحياة إلا ظلامها، ولا تشعر إلا برطوبة الأرض، وطعم الملح المتغلغل في كل شئ.. فتحكي للرجل عن كل ما تدركه عن مدينة الملح والظلام..

حتى ترى (أم السعد) زوج العم عبد المقصود، تدخل حاملة الطعام، تتأمل المرأة لون بشرتك الغريب، وتتأملها أنت بالشبق ينهمر من عينيك..

- امرأتك هذه.. ؟
- نعم زوجي أم السعد..
- اعطني إياها..
- ماذا ؟! ماذا تقول؟؟ !

تسمعك المرأة، تضع يدها على شفتيها، يكسوها الخجل، فتشع جمالا، ونظراتك التي تخترق ملابسها، تثير جسدها، وتثير غرائزك التي ما عرفت كيف تهذبها..

فتلتفت إلى العم عبد المقصود، الغارق في دهشته، تؤكد له مطلبك..

- اعطني إياها الليلة، وحينما أحصل على امرأة سأعطيها لك متى طلبتها..

يتمالك العم عبد المقصود، يبتسم متعجبا..

- هكذا كنتم تتبادلون النساء في بلاد الملح.. ؟ !
- نعم.. أنا لا أحب مضاجعة المرأة سوى مرة واحدة.. وفي بلاد الملح كنت أستبدل المرأة التي أملكها كلما اشتقت جسد امرأة.. نعم كان الظلام يساوي بين ملامحهن، لكني كنت أتذوق طعمهن جيدا..
- الأمر يختلف عندنا يا ولدي..

ويحكي لك عن الزواج، الحب، القانون، الشرع، وكثير من القيود التي تكبل كل شئ..

- أليست المرأة مطية الرجل فما العيب أن يستبدلها..؟!

يضحك الرجل من سذاجتك، من جهلك بأمور الحياة التي صارت غريبة على إدراكك، فيحدثك ثانية عن الحب، الموسيقى، الشعر.. فتصرخ:

- أنا لا أستطيع أن أفهم هذا الذي تدعونه الحب، وهذا الذي تقول أنه شعر.. ؟ ماذا يعني ؟ كلمات.. مجرد كلمات ؟ لا تغني عن نحت الجبال بالأظافر لملأ جوالين بالملح، من أجل قطعة لحم مملحة، وامرأة عطنة الرائحة.. !
- الحياة هنا تختلف يا ولدي.. هنا أشياء أخرى كثيرة غير الطعام، والنساء، لها مذاق شهي، أشياء أخرى تستحق أن تعيش لأجلها..
- لماذا تدعوني (ولدي) أليس لك أولاد.. ؟
- لا.. لم أرزق بأبناء، ولا أعرف لك اسما.. ؟
- أنا أيضا لا أعرف الأسماء، ولا أعرف معنى اسمك، ولا اسم امرأتك التي تدعوها (أم السعد).. !
- الأسماء جعلت للتمييز.. وعلى كل حال سأسميك أنا.. أسميك.. آه (رحال) اسم اعتقد أنه يناسبك كثيرا..
- على الرغم من أني لا أعرف جدوى للأسماء سوى أنها تفرق بين البشر، تضع قيودا على الذات، وعلى الروح.. إلا أنه ما دام يعجبك هذا.. فأنا إذن (رحال)

وتتأمل وجه العم عبد المقصود، وآثار الزمن العنيد تمتطيه بسطوتها، لكنها لم تستطع أن تهزم الابتسامة على شفتيه، ولا إشراقة الاطمئنان على وجهه.. وظهره الأحدب، كأنما يحمل على ظهره نتوءا بداخلـه معـارف الحياة..
وتبدأ في تعلم أبجديات حياتك الجديدة، ويبدأ الناس يألفونك تتجول في شوارعهم، تضيق نفسك مـن أسـئلة الرجال، ومن نظرات الأولاد الفضولية..
لكن ما بال النساء تخشى النظر إليك.. ؟
قد مضت أيام كثيرة، وجسدك يشتعل رغبة لمضاجعة النساء، يشتاق الارتجاف، وكلما اقتربت من امرأة فرت منك، كأنك الموت.. !
حتى اشتقت للنساء السجينات بين جبال الملح، لكنك ما وجدت طريقا للسرداب الذي خرجت منه.. ما وجـدت سوى جبل من الحجارة السوداء، أسفله البحر الكبير.. ذلك الذي عشقت رائحته، واضطراب أمواجه..
على شاطئ البحر يأتي أناس كثيرون، يخلعون جل ملابسهم، ينغمسون في المياه، ويستلقون عراة تحت أشعة الشمس.. تشتاق نساءهم، تقترب، تخلع ملابسك مثلهم.. ينظرون نحوك ويـضحكون بـسخرية، وتعجـب.. يتفحصون لونك الأزرق، والنساء يمعن النظر في محل ذكورتك، يعضضن شفاههن اشتياقا، ورغبة..
تدنو من إحداهن، كانت تناديك بابتسامة هزت كل وجدانك، ونظراتها التـي أشـعلت الرغبـة فـي جـسدك المتأجج..
أيكون هذا هو الحب الذي حكى عنه العم عبد المقصود.. ؟ أيكون هذا هو شرط مضاجعة النـساء فـي هـذا المكان.. ؟
وتجثم فوقها، ترتاع المرأة من هجومك المباغت عليها.. تصرخ، تستغيث منك، يعلو صوتها بلغة لا تفهمها.. يتكاثر حولك الرجال، يصارعونك، تقاتلهم بقبضة يدك، كأنك تدك جبال الملـح.. ينهزمـون، يفـرون إلـى سياراتهم، ينطلقون هاربين..
ترتدي ملابسك.. تلملم أشياءهم التي تركوها مذعورين.. تذهب إلى المسجد.. يرتعد العم عبد المقصود..

- ماذا فعلت أيها المجنون.. ؟
- لقد قاتلت قوما عراة عند شاطئ البحر، فتركوا هذه الأشياء وفروا..
- لماذا قاتلتهم.. ؟ هل جننت.. ؟
- كانوا عراة.. لم يكونوا يتحدثون لغتنا، رفضوني وهم يمرحون في بحري.. فكيف لا أقاتلهم وهـم أرادوا قتلي.. ؟

يبتسم الشيخ حسن إمام المسجد، يربت على كتفيك، والعم عبد المقصود يـضرب يـدا بيـد، يخـشى قـدوم الشرطة.. يخشى قانون بلاده..
يأخذك الشيخ حسن إلى داره، وأنت لا تدري أن هناك من استمع إلى حديثك، تأمل قوتك، دبر لك أمرا..
دار الشيخ جسن جميلة، كبيرة، فيها الكثير من الوسائد، والفراش، والأثاث، والكثير من الحجـرات، تزينهـا زخارف وألوان مبهرة، وتتساءل في نفسك، لماذا دار العم عبد المقصود ليست كبيرة وجميلة كهذه الدار.. ؟
وزوج الشيخ حسن رائعة الجمال، تستقبلك بابتسامة هادئة، تحييك بكلمات رقيقة، ترتدي ما يستر كل جـسدها وشعرها، صوتها ناعم، يسري في روحك فتضطرب..
هكذا تكون الأم.. ؟
وتطول نظرتك إلى وجه المرأة.. تغوص في خجلها، تهمس لها..

- أريدك أمي..

تهتز مشاعر المرأة، يربت الشيخ حسن على ظهرك..

- ستكون لك بمثابة الأم، وسأكون أنا لك كالأب.. وستكون ابنتي وفاء كأختك.. وهكذا سنكون عائلتك..

وعلى مائدة الطعام تأتي (وفاء) ما رأيت عمرك مثل هذا الجمال..
ما رأيت عمرك وجها يحمل كل هـذه الفتنـة، كـل هـذا الـضياء.. ويثـور بـداخلك شـئ لا تـستطيع تفسيره،وتضطرب نبضات قلبك حتى تؤلمك..
تخجل حتى من النظر إلى وجهها.. ما هذا الذي يحدث لك.. ما هذا الشعور الجديد..
أريد أن أرى لون عينيها.. لا أستطيع أن أرفع ناظري إلى ذلك الوجه الذي يتلون بالفرح.. بالحب..

- مرحبا بك يا رحال.. لقد سررت جدا بمجيئك هنا..
- وفاء كانت تلح كثيرا لأحضرك هنا، تريد أن تراك عن قرب، تتحدث إليك.. هي تهتم لأمرك كثيرا..

فلا تدري بماذا تجيب.. ؟ ماذا يمكن أن يقال في مثل هذا الموقف.. ؟ وهل يستطيع أحد أن يتحدث أمام وجه ينضح شعرا.. !

- ما لك لا تتحدث.. ؟ لقد كنت شغوفة للقائك، والحديث معك..
- دعيه يأكل يا وفاء، وبعد تحدثا كيفما تريدان..

ترتجف يداك، يضطرب صدرك، لا تدري مذاقا للطعام، تزدرد الذي أمامك سريعا، لعلك تنعم بالحديث معها، لعلك ترى عينيها..

وتحين منك التفاتة إلى مرآة معلقة على الجدار.. تتأمل وجهك الأزرق، عينيك المستديرتان الضيقتان، أذنيك الكبيرتان، أنفك الأفطس الضخم، شعرك الملبد المغطى بالغبار، شفتيك الغليظتان.. لحيتك المهترئة التي تزيدك بشاعة.......

تنحدر دموعك على هضاب وجهك الكهل..

- لماذا تنظر إلى المرآة يا رحال.. ؟

تستدير نحوها، تخجل أن ترفع عينيك أمام صباح وجها..

- أتبكي يا رجل.. ؟ أتبكي.. ماذا يبكيك.. ؟ حدثني يا رحال..
- كنت أود أن أرى في المرآة وجها غير هذا..
- يا لك رجل ضيق الأفق..
- وجهي دميم.. لا يأتلف مع جمال وجهك..
- أتعني أني جميلة.. ؟
- جدا.......

تضحك وفاء، يهدر الدلال من شفتيها، وتضحك الأم قائلة..

- أنت أيضا جميل يا رحال.. ينقصك فقط بعض الملابس..

وكنت قد أعددت لك بعضها، لكن بعد ما رأيتك... فأنت أطول كثير مما قدرت.. سأشتري لك ملابس أخرى تناسبك، وسأرسلها إليك في منزل الشيخ عبد المقصود..

- هل أستطيع أن أزوركم مرة أخرى.. ؟
- نعم تستطيع.. شرط وجود وموافقة الشيخ حسن..

يربت على ظهرك الشيخ حسن مرحبا.. تنهض متثاقلا للانصراف.. تقبل يد الشيخ، ويد الأم، تنظر في عيني وفاء، تومئ لها برأسك..

ما بال يدك لا تستطيع أن تمتد، فتمس يدها تحت مظلة التحية.. ؟

لكني رأيت عينيها.. بنيتان.. صافيتان.. جميلتان كالأمل..

***

تحت أقدام الجبل، أمام البحر المضطرب تجلس، ساهم الفكر، شارد البال..

الآن عرفت طعم الغرام.. ؟

هل ذقت الحب يا رحال.. ؟

الآن عرفت أن للشعر مذاقا أحلى من اللحم الذي تعده أم السعد.. ؟

هل تريد أن تغني.. ؟

وأرقص.. وأهز الدنيا من فرط شوقي وغرامي..

ها هي وفاء قادمة، على رمال الشاطئ تضع لوحة بيضاء، تداعبها بالريشة، تصبغها بالألوان، ترسم البحر والشمس، وقلوب صغيرة متعانقة، تتراقص في ظل نشوة اللقاء..

- ماذا تفعلين.. ؟

- من.. ؟ رحال.. ؟ أفزعتني..
- فرحت جدا حين رأيتك ها هنا..
- ماذا أتى بك.. ؟
- أنا آتي هنا كثيرا.. يسامر البحر وحدتي حينا، وألهو أحيانا مع نوارسه وطيوره.. حتى إذا مـــا ودعتنـــي الشمس، رحلت قبل هبوط الظلام..
- أتحب البحر يا رحال.. ؟
- أحبك أنت..

تسقطك نظراتها صريعا تحت أقدامها، تحتويها بذراعيك، تعتصرها على صدرك.. تصرخ وفاء متألمة..

- انتظر يا رحال.. انتظر..

تتركها.. تنفلت من بين ذراعيك.. تنظم ثيابها وشعرها..

- أعتذر..
- لا يا رحال.. لا اعتذار عن الحب.. لكن.. ليس هكذا.. ليس بهذا العنـــف، وفـــي هـــذا المكـــان، وبهـــذه الطريقة..
- ....

يحاصرك الخجل من نفسك.. أبعد أن عرفت معنى الحب، تكتشف أنك تجهل كيف تمارسه.. ؟

- اسمع يا رحال.. أنا أيضا أريد أن أستمتع معك.. سأعلمك كيف تمارس الهوى.. خذ هذا البـــساط، خلـــف الصخرة الكبيرة التي هناك افرشه على الرمال، وأنا سألملم حاجاتي وآتيك..

رقص قلبي، كاد أن يقفز من بين ضلوعي ليغني للهوى، ويملأ الدنيا بأناشيد الحب..

جاءت خلف الصخرة متألقة بالبهاء، أجمل من الشمس في إشراقها، أجمل من الزهر، من القمر، من الـــشعر، من كل الوجود.....

- اسمعني يا رحال.. أنا ما زلت فتاة بكر.. بمعنى أن هناك حدودا علاقتنا.. هيا.. ضمني برفـــق.. قبلنـــي بنعومة.. هيا يا رحال.. برفق....

يفوح عطرها من بين مداخلات الضوء الهامس بموسيقى العشق، أتنسم الحياة من شـــفتيها، ومـــيض عينيهـــا يركع له الفؤاد.. يسكنني العشق والغناء.. أحتويها بدفء النبض الذي يرتل اســـمها آيـــات للهـــوى، وشـــعاع غروب الشمس يلون وجنتيها باللون الوردي..

أفر إلى النهر الممتد بين أهدابها، أسبح وسط النغمات المنسابة بين شفتيها.. يشملني العشق، يسكنني الغنـــاء.. فأعزف ألحاني على أوتار ضيائها، أراقص المعاني، وأحرف الكلمات.. ينبت العـــشق مـــن دفء قبلاتهـــا، وطوفان مشاعرها..

يسكنني العشق والغناء..

أتجول في أشعار السابقين، أتخبط بين أشواقهم وهيامهم ومشاعرهم..

أرتدي عباءة (قيس) فأجن..

أتقلد سيف (عنترة) يقتلني غمده..

أهذي بكلمات (المتنبي) تنغلق على صدري الصحراء..

أنا المسكون عشقا وغناء، أجوب آفاق الأشعار مغلف بالصمت، أراقص أطياف المنى، أجالس الهـــوى بـــين حدقتيها، أتوسد الحنين على صدرها، أمتص الغرام من شفتيها، أرضع الحياة من ثدييها..........

- كفى.. كفى يا رحال..
- لكني ما زلت مشتعلا...
- كفى.. كفى.. لنا لقاء آخر..

وتنهض تلملم ثيابها، وأشياءها.. تقبلني وتذهب، والشمس تقبل البحر وتذهب، والظلام يتسلل إلـــى الـــشاطئ، والى قلبي المشتعل رغبة..

ترتد إلى دار العم عبد المقصود، شارد الذهن، مشتت الفكر والمشاعر،لا تدري أسعيد أنـــت لهـــذا اللقـــاء، أم حزين للفراق..؟

وتفتح لك الدار أم السعد، تبتسم مرحبة..
- أين كنت يا رحال ؟ بحث عنك عبد المقصود لتصلي معه، ثم ذهب هو وأوصى أن تلحق به حين تعود..
تضيق من ثرثرتها، ترتمي على الأرض منهكا، تجلس أم السعد جوارك، وجلة تمسح على وجهك..
- ماذا بك يا رحال.. ؟ هل آذاك أحد.. ؟
تقترب بأنفاسها من وجهك، تشعر بدفء أنفاس الأنثى.. تجذبها، تمزق ثيابها.. تزاول معها ما تعلمته الآن من فن مزاولة العشق، تستسلم المرأة ذاهلة مما يحدث، ورائحة الانتهاك تزكم أنفك، وأنت جاثم على جسدها المنتفض..
ثم...............
ترتمي خائر القوى..........
والمرأة تبكي.. نشوة أم انتهاكا.. ؟
لا تدري لكنها ترتدي ملابسها وتبكي، تلملم شعرها وتبكي، تنظر إليك، تضرب بقبضتيها على صدرك، ثم تطوق عنقك، تتشبث بجسدك العاري، يرتفع بكاءها أطول من قامتك..
وأنت تنظر عبر النافذة إلى النجم الذي كان يرقبك، تغض بصرك، تغوص داخلك، تشم رائحة العطن، رائحة جبال الملح، رائحة إنسان لا يستحق نسمة هواء تحمل رائحة القرنفل الذي تذوقته توا من بين شفتي وفاء..

***

عند شاطئ البحر .. تجلس لتستقبل أول شعاع من شمس يوم يأتيك متمهلا من خلف الغمام..
ينشر النهار نفوذه على الشاطئ، يصحو البحر من غفوته، يلقي ما في جوفه من زبد، كأنه كان يضاجع الرمال.. والجبل على عناده القديم، يشمخ بأحجاره الساكنة، يسخر من الرياح التي تهرول من حوله، ومن الأيام التي تفر من سطوته..
تأتي أم السعد.. تجلس ساكنة تحت قدميك.. يغلفها الانكسار، وجلبابها الأسود الذي مزقته شهوتك بالأمس..
- سأرحل من هنا..
تجزع أم السعد حين تسمع كلماتك..
- إن ما حدث...........
- ما حدث لا يحتاج تبريرا.. ما حدث يحدث كل يوم وكل لحظة في بلاد الملح، تحت جنح الظلام الذي يعمي الأبصار، فلا أحد يأبه لأي رجل يمتطي أية امرأة.. رائحة العطن تزكم الأنوف، ورطوبة الأرض العراء، والجهد الشاق المبذول لنحت الملح من الجبال بالأظافر، وبقبضة اليد، كل ذلك جعل من قبيلتنا فصيلة غريبة من المخلوقات، بلا مشاعر، أبدان بلا عقول، هياكل بشرية بلا إنسانية..
لكني رأيت الضياء، عرفت الألوان، سمعت الموسيقى، صوت الآذان، قرأت القرآن، أحببت.. ولم يبخل الحب فأذاقني كنهه، روعته، متعته.. وبعد كل ذلك، أسقط بين فخذي أول امرأة تستلقي على ظهرها أمامي.. ؟ ما هذا العار الذي يجللني.. ؟
- أريد أن أقول.....
- ماذا ستقولين.. أنت ملك للعم عبد المقصود.. هذا الرجل الذي يطعمنا دون أن نضطر لأن نملأ الأجولة بالملح.. أنت مطيته يا امرأة.. لا يجب أن يمتطيك غيره.. أليس هذا هو قانون بلادكم.. ؟
- اسمعني أرجوك يا رحال..
وتبكي.. تطفح الآلام من وجهها.. تكتب بنصل حاد تاريخ الانتهاك على جبينك..
- أنا مثلك يا رحال.. ليست هذه أرضي، وهذا ليس وطني.. لقد ولدت في قلب وادي يطل على بحر أوسع من الكون..
كنت أسكن مع أبي وأمي في كوخ من فروع الأشجار.. تكسو الوادي الأعشاب الخضراء، تحوطنا غابات من الأشجار العتيقة، تحفها الجبال الشاهقة، وعيون الماء والأنهار تتدفق حولنا، تجتذب الغزلان، الأغنام، الطيور..

كان وادينا يقع بين مملكتين متصارعتين دوما.. حين تشتعل الحرب بينهما، تتلاقى جيوشهما في وادينا..
وحين تنتهي الحرب، تعود الجيوش منتصرة، وننهزم نحن.. !
يتهدم كوخنا، تحترق ثيابنا، نتشتت بعيدا عن ديارنا.. ثم نعود لنلملم أشياءنا المنتهكة، المنهزمة..
أبي كان شاعرا.. يغني حكايات الراحلين على الربابة، يجوب النجوع والقرى، ويعود محملا بالمشاهد الجديدة، وآلام السعي الممل..
أما أمي.. فقد كانت تخدم في بيوت الموسرين من أهالي البلدتين، ترقص في أفراحهم، تبكي في أحزانهم، تعدد مناقب موتاهم، تداعب شبابهم، ترضي فحولة كهولهم..
كنت أرى الخوف يسكن عيني أبي دوما، والمهانة والانكسار يكسوان ملامح أمي..
في الليل، تفترش أجسادنا الحصير، منهكة، منتهكة.. فأتسلل من باب الكوخ المنتصب في العراء، أشاطر النجوم لهوها بالظلام، وأتوغل بين أشجار الغابة.. تتمزق المسافات تحت قدمي، وتختلط الاتجاهات في دروب الظلام، والتيه العظيم..
طفلة.. مجرد طفلة.. أحب مداعبة النسيم لضفائري، وأرسل إلى الرياح ابتسامات الخجل من نظرات القمر التي ترتمي على جسدي بدون حياء..
لا أكترث باتساخ جبيني، ولا بالثقوب تملأ جلبابي الرث.. أستند بكتفي على جذع شجرة تساقطت فروعه وأوراقه بفعل خريف عمره، ونظراتي تسكن وجه الغمام، تخترق حجب الصمت.. فيهديني الغمام قطرات المياه، يغسل وجهي، أداعب أمطاره بفرحة الطفلة..
وفي مخدعي بجوار النافذة التي فقدت نصف زجاجها، أستلقي، أرقب القمر الذي يداعبني بحكاياته عن الأحلام..
حتى مات أبي.. قتلوه في إحدى الصراعات المقيتة، في إحدى الحروب القذرة التي لا ندري لها سببا، ولم نكن طرفا فيها..
أصابه السهم في حلقه.. سقط تحت سنابك خيول المحاربين.. ماتت أشعاره، سكتت حكاياته..
دفنوه في صحراء ما زالت تئن من وقع سنابك الخيل، وصليل السيوف، والرؤوس المتطايرة، والدماء التي تنفذ من بين مسام رمالها، تنبت أشباحا تصارع الضياء، وتكبل الحروف بمزيد من علامات الاستفهام، لتطل الإجابات، تصطدم بحروف الخجل، فتتوارى تحت سفح الهروب..
لم تأبه أمي لموته كثيرا.. قالت إن الرجال كثيرون..
أما أنا.. فقد افتقدت صوت الربابة، أناشيد الجوى، مغامرات العاشقين، أساطير القدماء، وآخر ما رأته عيني أبي أثناء تجواله..
كان أبي يلملم روحي بين ضلوعه، فأتراقص على إيقاع قلبه.. افتقدت كلماته، ضحكاته، نظراته الخاطفة على جسدي، وابتسامته التي كانت تعني أني ما عدت طفلة، بعد استدارت صدري، واستقامة قدي..
فأخجل من نظراته، وابتسامته الودودة.. أهرع خارج الكوخ، أتوارى من عينيه.. أداعب ثديي، وأحلم بمن يلقمهما بشفتيه، ويداعبهما بكف حريري الملمس..
بعد موت أبي.. دخل الرجال في وادينا أفواجا.. ملأوا حجرة أمي، وانتصبت عدة خيام بجوار كوخنا..
ملأتها أمي بالنساء اللائي أحضرتهن من المواخير التي اعتادت ارتيادها بعد موت أبي..
وصارت الليالي تترنح سكرا، لهوا، عربدة.. كف القوم عن الحروب.. لكنهم صاروا يتبارون على جسد أمي، والنساء المصاحبات لها، واللعب بالعصي، وبالمشاعر، وبالأجساد العارية.. بالانتهال من كل امرأة يرميها الحظ العاثر في وادينا..
واتخذت أمي خيمة خاصة بها..
حين دخلتها يوما، رأيتها عارية أسفل رجل، سمعتها تغني الغنج آهات مسترسلة..
لم تشعر بدخولي، أو بخروجي شاردة الذهن، مهدمة المشاعر، والدوار يلعب برأسي، تناولت أول كأس خمر، حلق بي سريعا فوق مدارات الخيال، ورقصت.. جحظت عيون السكارى.. خلعت ملابسي، تصاعدت الآهات، امتدت الأيدي تعبث بجسدي كما تشاء..
وأنا بدوري أبحت لهم كل شئ.. كل جسدي مباح.. من يريد أن يغترف من الجسد البكر، فليغترف بقدر ما يستطيع..
وتنقلت بين الرجال.. ارتويت من شبقهم حتى مللت الارتواء..

رأتني أمي.. غضبت، ثارت، لطمتني.. صرخت في وجهها، أن ليس من حق العاهرة الأم، أن تلطم عـاهرة صغيرة في بدء طريقها تحبو..
ثم تركتهم وفررت.. فررت من كل شئ.. من الوادي، البحر، شجرتي العذراء، أصداف الشاطئ.. والـصور الممزقة التي كنت أرسمها على جدران حجرتي..
رحلت.. والأيام كالبلاد.. تسلمني إلى بعضها في نظام رتيب، ممل.. حتى أوصلني الفرار إلى هـذا البلـد..
حين دخلته كان الليل قد امتلك كل شوارعه، ومبانيه.. حتى المسجد الوحيد كان بابه موصدا.. !
تكورت أمامه حتى تجمدت أطرافي من البرد، والوهن ينخر في جسدي.. أما الجوع.. فلن أحدثك عن عربدته في أحشائي..
عند صلاة الفجر، وجدني الشيخ عبد المقصود.. أخذني إلى داره.. آواني، أطعمني.. بالغ في إكرامي.. وعلى الرغم من أنه أحدب، فقير، لكنه يمتلك قلبا يفيض حنانا وحبا لا تجده بين البشر بسهولة..
لذا.. حين أبدى رغبته في الزواج مني، سعدت جدا، وافقت على الفور.. كان أملي أن يصير لدي دارا مثـل أي امرأة، وزوج يسعى لإرضائها..
لم أكن أطمع في أكثر من الشعور بشيء من الأمان..
في أول ليلة لزواجنا، صارحني عبد المقصود بأنه لا يستطيع التعامل الجسدي مع أية امرأة..
رضيت بهذا تماما.. عشت معه سنوات، وهو يذكرني دائما بأبي، وأشعاره التي صار يرويها لي مـن كتبـه العتيقة..
وحين أتيت أنت، ورأيت نظراتك تنهش جسدي، بشهوتك الطاغية، أيقظت بداخلي إحـساس الأنثـى، شـهوة الجسد.. حتى كان الأمس........

- لا.. لا تكملي حديثك..
- بل دعني أقول كل شئ.. ربما تكون هذه آخر كلمات تسمعها مني.. أنا لم أفكر لحظة فـي الزنـا.. فـي خيانة الرجل الذي آواني، وأكرمني.. لكن.. لكن.....

قد حدث ما حدث.. فعاودني الشعور بالانتهاك.. ما كنت أعيبه على أمي بالأمس، فعلته أنا اليوم.. مـا ذنـب هذا الرجل البائس أن أبيح عرضه للانتهاك.. لذا.. فأنا اليوم راحلة.. بل الآن.. إلى أيـن.. ؟ لا أدري.. كـل ما أعرفه أن هذيانا كالإعصار يدوي في رأسي، يفتت أفكاري.. يكاد أن يدمرني..
لملمت دموعها في كف مرتعشة، نظرت إلى السماء متوسلة، اتخذت طريقها في اتجاه الغروب.

***

يلد الليل ظلاما، أحلاما مفتتة، نذر من رياح مشؤومة تهتك وحدتك، تنهدم تحت جفنيك قلاع النـوم، يـصمت المزمار الراقد على العشب تحت مضاجع الندى..
أهذه الحياة التي ظننتها يوما تتسع لأحلامك.. ؟
كم تمنيت أن تلملم أشعة الشمس بين كفيك، لتدفئ بها مشاعرك، أو ترتقي فوق الغمام، أو تسبح فـي بحـار النسيم المعطر بأريج الزهر..
لكن .. ها هي الأرض.. أوسع من خطواتك، والسماء لا تستوعبها عينيك، والأفق أبعد كثيرا مما يصوره لك خيالك المريض..
كم صدر تظن يكفي لاحتواء نسيم الكون.. ؟
مجرد سؤال.. فقط لتعرف حجمك الحقيقي وسط هذا المدار..

***

ذهبت أم السعد تجرجر خلفها ظلا منكسرا.. والعم عبد المقصود يبحث عنها في كل مكان، يناديها ويبكـــي.. حتى أعياه البحث، فزاد انحناء ظهره، حتى كاد وجهه أن يلامس الأرض.. أيام قليلة وصار طريح الفراش.. ساكن، عيناه معلقتان على القنديل المدلى من سقف الحجرة..
وأنا لا أستطيع البوح بما في صدري، تتصارع بداخلي أشياء لم أكن أعلم عنها شيئا من قبل.. ما هـــو الـــذي يجب، وما هو الذي لا يجب.. ؟ ولماذا ؟ لماذا ؟
ما الحق، ما الفضيلة، ما الصواب، ما الخطأ، ما الغدر، ما الوفاء.. ؟
وفاء.. ؟
هرعت إلى شاطئ البحر.. وفاء.. حبيبتي.. تقف أمام لوحتها ترسم سنابل القمح وهي تعانق عناقيـــد العنـــب، فوق ظهر ثور منزوعة قرونه، مشقوقة ملامحه..

- وفاء.. حبيبتي..
- من.. من أنت.. ؟
- أنا.. ؟ أنا رحال.. !
- وماذا يعني ذلك.. ؟
- أنا رحال يا وفاء.. !
- وأنا لا أرى أمامي سوى رجلا دميم، تعاف نفسي أن أنظر إليه.. انصرف من هنا، والا أتوعـــدك بمـــا لا يمكن أن يخطر لك ببال..
- وفاء................
- انصرف..

تحسست مكان اللطمات.. ما وجدت لكياني وجود.. ووجهي مثقوبا حتى القدم.. عدت، والطيور تأكـــل مـــن رأسي.. لا أعي ماذا يحدث.. ولماذا.. ؟؟؟!
بالأمس كنا، كيف الآن صرنا......... ؟
لماذا....... لماذا........... ؟
صرخت بعنف حتى اهتزت القرية لصراخي.. هرولت إلى الدار.. ارتميت على صدر عبد المقصود..

- أريد أن أعود إلى بلاد الملح يا سيدي.. أنا ابن بلاد الظلام، ولا يجب أن أختلس ضياءكم.. أرشـــدني يـــا سيدي إلى السرداب الذي أتيت منه لأعود أدراجي.. أعود إلى الهواء العطن، فأزهاركم مزيفة، وألـــوانكم خادعة، وضياءكم كاذب.. دلني يا سيدي كيف أعود.. كيف أعود..

لكن العم عبد المقصود كانت كلماته قد ذابت عند حدود النداء على زوجه.. سكنت أنفاسه، تيبست أوصـــاله.. مات عبد المقصود.. حملوه إلى المنتهى..
قتلت عبد المقصود يا رحال.. ؟
قتلت الرجل الذي أعطاك اسما، ودارا، وكتبا.. ؟
من علمك كيف تصوغ المشاعر في كلمات، من صنع منك شاعرا.. ؟
انتهكت عرض الرجل الطيب ؟ وأم السعد التي كانت تصنع طعامك، يا لحقارة ذاتك، نجاسة فكرك.. تب يـــا رجل.. لعل
الله يغفر لك شيئا، أو يضع في قلبك هدى تهتدي به..

***

جاءني الشيخ حسن، ومعه رهط كبير من شباب البلد الذي لا أعرف له اسما.. حدثوني كثيـــرا عـــن الحيـــاة الزائلة، والفضيلة، والاستقامة، وعذاب القبر، ونعيم الآخرة، والباقيات الصالحات، وال........ وال.........
اقشعر جسدي وأنا أرى وجوههم تنضح طهرا، تزينها اللحى السوداء، وجباههم مسودة مـــن أثـــر الـــسجود، ملابسهم البيضاء، وعمامتهم تزيد وجوههم إشراقا..

- دلوني على الطريق..
- كتاب الله يا بني فيه هدى للعالمين..

يتحدثون بخشوع كأنهم في صلاة.. أحببتهم، وتيقنت أن الخلاص من شرور الحياة يجب أن يكون على أيـــدي بشر نورانيين كهؤلاء.. أعطوني مفاتيح المسجد، أوكلوا إلى وظيفة العم عبد المقصود، كخادم للمسجد..

***

- ماذا تأمل في حياتك يا رحال.. ؟

سؤال الشيخ حسن يهدر في أذني، يفتح طرقا أخرى للحياة..

الأمل.. ؟ هل هو مرادف للألم.. ؟ ما هذا التماثل بين الكلمتين، وهذا التشابه بين الحروف.. ؟

- كنت أرغب يوما أن أمس الضوء بأناملي، أن أرسم على وجه القمر أحلامي، أن أعيش حياتي أنشودة.. أن آوي إلى حضن زهرة، أفترش العشب، ألتحف بصفاء السماء، أداعب النجوم بخيالاتي.. كنت أتمنى أن أتعلم كيف أعزف على الناي صوت اليمام وهو يغني..
- لا.. ليس هذا.. هل تمنيت أن تكون لك زوجة، أبناء.. أن تمتلك أرضا تكون وطنك، ووطن أبناءك.. ؟
- لماذا أمتلك أرضا ؟ والأرض مشاع للجميع..
- أين تعيش الآن يا رحال.. ؟
- في منزل العم عبد المقصود رحمه الله.. !
- وقد مات عبد المقصود، الذي كان يستضيفك في منزله.. وبعد موته يحق لنا أن نأخذ الدار، وكل ما فيها، أننا أهله والأحق بميراثه..
- ماذا.. ؟
- لكن إن كانت لك دارا تملكها ما استطاع أحد أن يأخذها منك..
- هل تعني أن أبني دارا أخرى.. ؟
- أين ستبنيها، وأنت لا تملك أرضا.. ؟
- الأرض واسعة، رحيبة، تستوعب أضعاف عددنا.. !
- لكنها كلها مملوكة لأناس آخرين..
- وكيف أمتلك أنا أرضا.. ؟
- تشتريها..
- لا أملك شيئا.. ؟
- إذن يجب أن تمتلك أولا، ثم تشتري، ثم تبني، وتتزوج، وتنجب عائلة كبيرة تسمى عائلة رحال الأكبر..
- كيف ذلك.. ؟
- هذا ما يجب أن نناقشه.. أنظر إلى ما حولك يرحال، لترى أننا نعيش على ساحل بحر ظامئ دوما لأجسادنا.. ومن خلفنا تلك الصحراء التي تمتد لتلامس حواف السماء.. منازلنا فقيرة كما ترى.. نقتات من بعض المزارع القليلة، وبالتحايل على أسماك البحر، ورعي الأغنام الهزيلة.. حتى الماء نحصل عليه بصعوبة شديدة.. حياة جافة كما ترى.. وجوارنا تلك المدن الغنية، التي يرفل أهلها في متع، ونعيم لا حدود لها، العمارات الشاهقة، النساء اللامعات، السيارات التي تنهب المسافات.. يكنزون الكثير، والكثير من الذهب والفضة، وغير ذلك مما لا تستطيع تصوره من ملذات الدنيا ونعيمها..
- لماذا لا نعيش معهم.. ؟
- كنا نعيش معهم.. لكنهم قتلوا مننا الكثير، وسجنوا الكثير.. ففررنا بديننا إلى هذا المكان..
- لماذا.. أليسوا مسلمين.. ؟
- هم يدعون ذلك يا بني.. لكنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.. وقد أمرنا ديننا بجهاد الكفار المارقين.. ووعدنا بإحدى الحسنيين.. إما الشهادة في سبيله تعالى، وإما النصر المبين لإعلاء دين الله.. أتعلم يا رحال أن أموالهم غنائم لنا، ونساءهم سبايا لنا، لأنهم كافرون ونحن فقط المسلمون، وهذه أرض إسلامية، فكيف نرتضي للكافرين أن يستلبوا أموالنا التي أعدها الله للأتقياء من عباده.لنا. .. نحن المسلمون..فهل أنت معنا.. ؟
- يا سيدي أنا.......

- أعلم أنك تريد أن تتزوج.. وابنتي أيضا صارت عروسا جميلة.. الاخوة الآن يعدون العدة لجهاد الكافرين.. سيعلمونك كيفية استخدام السلاح، وسيخبرونك بالدور الذي ستقوم به..

***

وتتقن يا ابن جبال الملح صناعة الموت، وسفك الدماء، حرق وتدمير وسرقة المحلات، وتعود بالغنائم إلى الشيخ حسن (أمير جماعة المسلمين)، تفرح الأم هنية، وزوجك وفاء، تغدقان عليك الحب والعطف والحنان، وأنت تغدق على الجميع بأموال الغير، تحت مظلة فتاوي الجهل والجهالة..
حتى كان يوم ألقيت قنابلك على مدرسة الأطفال، ورأيت جثث البنات في عمر الزهور تختلط بأوراقهم.. أي خطر يمثله هؤلاء الأطفال على دينك.. ؟ها هي قنابلك تمزق كتاب الله وتسيل دماء الأطفال عليه، فلا تستطيع أن ترى آيات الرحمة والعدل..
تقتل الأطفال الذين يحملون كتاب الله الذي لا تعرف أنت حتى كيفية قراءته.. ؟ فمن الأحق بالقتل أنت وشيخك، أم هؤلاء الأبرياء.. ؟
يملؤك اليقين أنك ما عرفت كتاب الله أبدا، وأن أميرك وجماعته قد زيفوا لك دين آخر غير الإسلام دين الرحمة.. خدعوك بما ليس من صفات الإله العادل الحق الرحمن الرحيم..
فتعود مسرعا، لتجد زوجك المصونة في أحضان أحد الأخوة المجاهدين.. !!!
ينكسر شئ بداخلك،أي زيف تعيشه أيها البائس، ما هذا الذي يحدث..؟
ما هذه الشعارات الجوفاء التي أملوها عليك ؟
أي خداعا يمارسونه عليك يا ابن بلاد الملح.. ؟
تهرع إلى دار الشيخ حسن، تجده نائما، ورائحة الخمر تفوح من فمه.. ! والأم هنية ترقد في استسلام لمداعبات الشيخ المخمور.. تخلع ملابسك، تنقض على جسدها، تتبول في فرجها كل الزيف الذي رضعته من زوجها.. وتفيق المرأة من نشوتها، تراك عاريا فوق جسدها العاري، تصرخ.. ويداك المدربتان على القتل تلتف حول رقبتها، تصمت صرخاتها، أنفاسها، تجحظ عيناها..
- قتلتها يا رحال.. ؟
آخر كلمات الشيخ حسن، قبل أن تقتله هو الآخر..باسم من تقتل الآن يا رحال.. ؟قتلت عبد المقصود قهرا، ونفيت أم السعد ذلا، ثم حملت السلاح.. باسم الحق قتلت ودمرت كل جميل..
والآن.. تزني في من لا تحل حتى للزواج بك، وتقتل الشيخ السكير، بينما زوجك في أحضان رجل آخر..
اهرع إليهما يا رحال.. اقتلهما.. اقتل، اقتل، اقتل..............
والآن لن يجدوا أسوء منك ليكون أميرا لجماعة المسلمين خلفا (للشهداء) كما يزعمون..
أليس كل مقومات الأمير أن يكون قاتلا محترفا !!
هيا يا بن مدينة الملح والعفن.. اكنز الذهب، كل نساء الجماعة رهن إشارتك.. ألست الأمير.. ؟ أوامرك نافذة دون جدال..؟
حتى إذا أشبعت غرائزك من نسائهم، تحمل كل الذهب وتفر إلى نساء المدينة اللامعات، يجعلك الذهب دائما جميلا.. فتحاصرك النساء بألوانهن، وعطرهن، وإثارتهن..
انتهل من الشهوات يا بن بلاد الملح.. أعلن نفسك شاعرا أيضا.. ! الذهب هو شعرك، وأدبك، وفكرك، وفلسفتك..
هيا فبقدر ما تحوز من ذهب، بقدر ما تستطيع أن تكون كما تشاء.. فما ادعى قارون وفرعون وغيرهما الربوبية إلا بقوة هذا المعدن الأصفر.. الذهب..

***

نهض (الآخر) يذبحه الفزع.. ألقى زينة من على صدره.. صرخ..
- ما هذا الذي تحكيه يا رجل.. ؟ أقصد يا رحال، أو يا أمير جماعة المتنطعين..
تسقط إجاباتي خجلا.. كيف أتوارى من ذاتي، من نظرات هذا الآخر.. ؟

تنهض زينة، ترقص على رنات الزيف..
والعازفون يركلون ملامحي الممزقة، يهشمون آلاتهم المقطعة أوتارها.. يبتهلون للأكفان أن تحتويهم ليغربوا عن ملامحي الملقاة على الأرض، التي وطؤها بنعالهم..
اقتربت زينة.. همست..

- مازال للحديث بقية.. ؟
- نعم..

صرخ (الآخر)..

- كفى.. كفى.. لا أريد سماع شيئا آخر..
- بل هناك أشياء أظنها تخصك..
- ماذا..
- اسمعني إذن..

اتخذت لي دارا صغيرا في بلد صغير.. هويت الترحال، والسفر الطويل، ونثر أشعاري، مع بعض الذهب الذي سرقته من جماعة السارقين.. ذاع صيتي، دوت شهرتي.. بفضل الشعر، بفضل الذهب.. ؟ لا أدري..
وحين يهدني الترحال، أعود إلى داري.. أنام كثيرا، حتى يوقظني الاحتياج للرحيل، فأشرع للسفر شراعا، واسلك أول سبيل يحتويني..
وفي يوم كنت عائدا من تجوالي.. عند باب الدار، رأيت الغمام ينام على صدر الأفق، يحمل وجه فتاة جميلة.. تتألم في صمت، تسكب دموع القهر، يسحقها العجز.. أمطرها الغمام أمام داري.. أخذتها، أسكنتها حجرة جواري..
كانت مغلقة بالصمت، في الليل تجلس ساكنة.. تغزل من سنا القمر أطياف تسامرهم..
وأنا أطوف بين معارج الكلمات، وروائح الأشياء، أحاول أن أكون شاعرا بصدق.. وأرقبها وهي تصارع آلامها، وتنزف من استكانتها حكايات قديمة.. يسمعها النهار فيتولى باكيا، ويجلس الليل تحت أقدامها، يغني الآهات..
يوما قرأت بعض الكلمات التي كنت أحاول أن أنظمها عن الحياة، والقمر..تقدمت مني وجلة.. جلست عند قدمي.. سألتني..

- أنت شاعر.. ؟
- أحاول أن أكون..
- أنا أحب الشعراء..

وعيناها تكتحلان بحزن أكبر من أن تحمله فتاة مثلها.. قالت بهدوء..

- هل تعرف أيها الشاعر شيئا عن (الحب) اسم هو أم فعل.. ؟ أم صفة تبحث عن موصوف غيري.. غيري أنا المجرورة بالحرف على أرصفة الشقاء..

ارتجفت.. أفقت من سبات الأزمنة، تدفق همسها، تغلغل داخلي، أنتفض وهي تنثر أسئلتها على حواف اللغة..

- أما زلت تقبع في وهم المستحيل.. ؟ أما زلت تنتظر مخاض الكلمات لحروف موسيقية الإيقاع.. ؟

أرشف حروفها، أرفل في فيض الكلمات، أعاقر الخمر وسهدي، تلعثمني جمرات الكلم، يجرفني لظاها، طوفان من حروف العشق يقذفني في جوف الأشعار.. فتتوهج جثث الأحلام بفيض القصائد، تثور الحروف قصائد شعر، أبكي في واديها غربتي.. تكتنفني العزلة، والنيران، وبخار البراكين..
وأستعيد لذاكرتي الشجن المتساقط على الأوتار الممزقة.. تائه أنا بين المدارات، أبحث عن وطن بديل عن رحم أم لم أرها..
ينهكني الركض بين نبض الروح، ونبض الشعر، ونبض الأحلام، ونبضات الوهم..
وأرى عينيها.. لونهما البني بلون القهوة التي أعشق مرارتها..

- من أنت.. ؟

استدارت بجسدها الصغير.. عبثت بأوراقي وأشعاري بلا مبالاة.. ثم التفتت، حاولت التوغل داخلي، اصطدمت بالأنقاض المبعثرة بجوف تكويني.. لملمت شتاتي من بين مدارات الكون، وضعتني في بؤرة الكلمات، ثم راحت تحكي..

كيف كانت تتأمل نصف القمر من نافذة الخوف، وترسم على جدران حجرتها صورا ممزقة تشابه أيامها..
وتغوص رعبا في دثارها القديم من صفعات أخيها، ومن موروث بغيض يحكي عن الأشباح التي تسرق الأحلام..
فتحلم سرا، وتمرح مع جدائلها سرا، وتلهو مع خيالها سرا، وتداعب الغمام سرا، وتضاحك الطيور سرا، وتخفي في ملابسها ما اختلسته من سنا نصف القمر ليكون سرها الأكبر..
وتسير خلف الأيام، تجرجر انكسار الخطى بين المسافات، وجبينها الملتهب بالحمى يحيل المياه بخارا، يتصاعد ليعانق نجمها المغترب، ويرسم حلمها البعيد..
وتواصل الحكي عن الليل المفعم بالأشباح التي تحاورها على جدار المشاهدات، ذلك الذي تهالك تحت نظراتها المتسائلة عن انشقاق القمر..
وتنكمش، وتتكور، وتلملم ذاتها على ذاتها، خوف البرد، والظلام، والأشباح، ومن نظرات أخيها الباحث دوما عن سبب ليزيد آلامها صفعة..
وتفر أحلامها الصغيرة من بين كفيها الصغيرتين، فترسم في الهواء نجما، وقمرا، وتشكل من الغمام شاعرا، وفستان عرس..
فيحتويها العم الطيب، تلقي على صدره أمنيتها..
- أريد يا عمي أن أتزوج شاعرا.. أكون بين عينيه تفعيلة حياة، أشاركه مداعبة الكلمات، ومعانقة الحروف..
يبتسم العم الطيب، يمسح بيده الطيبة على شعرها الذي استطال ليلامس تكورها بلون الغروب..
ويفضح فستان العيد جسدها البكر.. الذي استدار ولاحت تضاريسه، بلغ طور الخوف من مداعبة النظرات الشرهة.. ينتبه الأب، والأخ ذو الصفعات..
- ستتزوجين من رجل ثري..
يقولها الأب معتمدا على خوفها من صفعات الأخ.. تجزع، تهرب، تفر إلى الأم الدامعة في عجز، العاجزة في صمت..
- لن أتزوج يا أمي من غير شاعر.. أنتظر أن يأتيني من خلف الغمام الذي أعشق نقاء لونه..
الأم.. تلك التي صعدت الغمام ساعة من عمرها، ثم هوت بعنف السقوط بين براثن أب يهوى بذر الأطفال في جوف النساء..
أنجبت منه سبعة أطفال في صمت.. في عجز.. لم يتمرد منهم سوى توأمها الذي فر من الحياة بعد ميلاده بثوان، وهي التي تفر دوما على وجه قمر فقد نصفه، والنصف الآخر يستعد للأفول..
وفي المرآة، ترى شعرها المصبوغ بلون الشفق مسترسلا كالأحلام.. تستدعي شاعرها من أفق خيالها، تستلقي بين يديه، وكلماته العاشقة، وصوت قبلاته على جبينها كصوت الناي الذي تعشقه، توقظ حواسها، تعانق في جوفها مشاعر الهوى..
- سأقص هذا المسترسل..
وترتجف يداها اللتان تهوى الألوان، ورسم الجمال.. تخاطب شاعرها الذي يسكن خاطرها، ويحب أن يرى شعرها أطول من نهر الحياة..
- لا تحزن يا شاعري.. إن شعري ينمو سريعا، حين يأتي زمنك ستجده أطول من ليالي الألم..
وتقص شعرها.. تتساقط ألوانه الكستنائية عند قدم الأب، والأخ الشره لتصدير الآلام.. تنهال صفعاته، وركلاته على جسدها البكر..
تفر من بين صفعات الأخ، من بين سباب الأب، من بين دموع الأم وعجزها، إلى مرقدها، تحت نافذة الخوف، ترقب النهار وهو يتولى، ليصعد نصف القمر يواسيها في عجز وضعف..
وتسترسل حكاياتها مختلطة بدموع الألم.. وأنا أشك في زيف ما تحكيه، لكني أكتبه قصائد شعر، وكأني أكتبني.. رغم نفور الكلمات من دناسة الماضي الذي يهطل من بين حدقتيها..
ارتمت بين راحتي، الوهن يدب في جسدها، نزف كفها الكثير من العرق..
تناولت كأسا ملئ بالهذيان.. لملمت وجهها من غيبوبة الخمر، وحدقتاها تلقيان أسئلة عن غياب المطر، وانشقاق القمر..

كأنها حلم في الزمن الذي أخطأ الذاكرة.. تغوص عيناي في أمواج نظراتها، تتوازى مع خطوطها الـضوئية.. تختلط، تصنع إيقاعا راقصا فوق ظل مارق من تجاويف زمن مضطرب، يبحث عن ملامحه فوق وجوهنا..
والعمر لم يبق منه سوى الصمت، والخواء، وحزمة من سنا القمر..
فأراقصها.. أراقصها تحت المنهمر من وجه البدر.. تتكسر بين القبلة والعناق، وتتـراص الفراشـات حـول جدائلها كقصيدة سماوية.. تهمس بين شفتي..
- أحبك..
يتصاعد النبض من نغمات همسها، تسترخي أهدابها مستسلمة لكلمات نابضة كصفاء السماء..
- هواك كموج البحر.. كارتقاب الحلم..
- أحبك..
تلفظ المشاعر هيامها.. يتعانق الكفان، يهمسان بالعرق الغزير، الممتزج بلحن من شدو الناي..
عيناها تصبان الخمر في روحي، ترسو السفائن على راحتيها، تعانق شدو الطيور.. تهمس..
- أحبك..
تتشبث أناملي بشعرها المصبوغ بلون الحياة الوردي.. تتعانق الشفاه، نتراقص في ملحمة عشق، يغتال الـشبق لحظات من عمرنا، تسقط من الذاكرة الألوان القاتمة، نستعيد من الهوى زمنا فقدناه سلفا..
- أحبك..
كوب من الشاي بدون سكر، سيجارة بطعم الشفاه، والدخان يرسم في الفراغ آمال مستحيلة.. تـشتعل الأنجـم في عينيها..
- دعيني أحلم.. أتجرد من كل الأشياء..
- أحبـ.........
تبدأ في التهاوي.. تتكسر الأماني، تتمزق الأحلام.. أتذوق من شفتيها طعم الألم.. والموت يلتف حول بـدنها كالعليق..
تتصادم اللحظات عبر الظلام، ينزف القلب أشواقه.. تتبدى في الأفق غمامة تحمل بين طياتها الألـم، تمطـر هجرا / فراقا..
أتفقد الكلمات في كتاب يحترق العالم أسفله.. تسقط الحروف عبر النهاية.. أراقب انتشار العتمـة.. ولا أملـك غير حكايات القهر القديمة، وما أتذكر من صخب اللحظات، والفراغ الذي يسبق الكوارث..
- أحـ..........
يفقد بصري القدرة على اختراق حيز كينونتها.. ألملم أشلاء الحب.. تغضب السماء، تقذف نجومهـا لتحـرق أيامي..
يلفها الوهن، والغموض.. تتدثر بالأسرار، تختفي لحظة.. أبكيها بنشيج القيثارة..
يخلف الحب صقيع.. وفراغا يمزق الرأس.. أتلمس وجهها على جدار الأشعار..
- ملامحك هذه اليابسة.. ؟ كنت أريد أن أحدثك عن حكاياتي التعسة، عن ترحالي، أحلامي، حنيني..
- أحـ.......
- كنت أريد أن أجعل لك أمسياتي نجوما، و........
- أحـ.......بـ........ك....
تختفي في ضباب البكاء والألم، هربت متشحة بالصمت.. وحياتي تحترق، تنتهي على مهل، فأناديها..
- انتشليني.. فان الحكايا تجرفني إلى حواف الغرق..
- ....
- أسكنيني بدفء اللحن الموعود في طيات الذاكرة..
- ....
وتتشكل الحروف بنبضات اليأس.. أغوص في عتمة الفكر، أنكفئ على وجعي، ورائحة أحلامي..
وأفقت من وهمي.. وجدت أزهاري ممزقة، وقد حرقت كل أشعاري، سرقت ضوء القمر، عبثـت بحروفـي وكلماتي، وما تبقى من الشعر ألقته في سلة المهملات ممزقا..

فقدت قدرة التواصل حتى مع خيالي، في لحظة صرت حطاما لا يعي ماذا يريد، ركبت التجوال أبحث عنها.. فقط لأسألها..
- لماذا.. لماذا.. ؟
وفي كل مكان أحط فيه رحالي أراها، فتسكرني بطعم الندى، وصوت المطر، وعربدة الأشواق الزائفة..
أراها وهي تتنصت إلى الموسيقى المنهمرة من وجه نصف القمر، وتدغدغني لحظات الانتظار لاسترجاع كلماتي التي رأيتها تتراقص على شفتيها..
أراها تلملم الأطياف، تستر بها عري اللحظات، تعانق الأماني حتى الاختناق، أركض مستجيرا بالأحلام.. تغتالني الكوابيس..
ثم تغيب مع القمر.. تعتم الليالي.. وسؤالي على شفتي يسامر اللهيب المنبثق من ذاكرة النغم الغائب مع رحيل القمر..
ويحطني الترحال في سوق الشعراء.. أراها تمعن النظر في هامش الكلمات، يتجمع حولها المنشدون، تسقيهم خمر لياليها، يترنحون.. يلقون في ذاكرتها أشعارهم.. تسرق ألحانهم، وتغمض عينيها في انتشاء اللحظة، ثم تغوص في ظلال الكلمات، تفر بين النجوم.. ويسقط الشعراء بين دفتي أمل مارق في جوف الغياب..
وأرحل.. ويمتد بي الرحيل.. وفي كل مكان أراها.. تحكي الألم بشموخ يخرج الكلمات من تكوينها..
رأيتها يوما تجلس بجوار زوجها الجنوبي المحمل بأصداف البحر، وكبرياء الفراعنة، ولسعات الشمس، وتراث الأجداث، وحضارة المومياوات..
رأيتها والجنوبي الغبي يهوي بصفعاته، وقبلاته الشرهة على أجزاء جسدها المضطرب.. تتوه أيامها في حمى غطرسته.. تركع مرتجفة، وأنوار الشموع ترسم على جدارها ظلال عروس ممزقة، منتهكة الفكر، والجسد..
وبكل صفعة من الجنوبي.. تغتال هي شاعرا.. !
والأشواك تنمو في جدب روحها، ولون عينيها يهزمه الشره لقتل الشعر، وهدم أبياته..
وكلما أمسكتها، وقبل أن ألقي سؤالي العتيق، تغفو على صدري.. كما تغفو النجوم على صدر السماء، وترتجف من نشوة الخطيئة، كاليمام الذي يحتضر على صوت الموسيقى..
وأرى صورتها معلقة وسط دوائر الرقص المبهمة، وعلى أكاليل العظام الخائرة، وعلى ضباب السنوات الهاربة من عمر يلهث نحو الفناء..
وتنساب الألوان بين نهديها، ترقص بين جدران حجرتها، على إيقاع الشبق المجنون بعريها، وتنهداتها، وارتجافاتها..
أرسم على سنا نصف القمر سؤالي الحائر.. أمنحها الفرصة الأخيرة لغلق أبوابها على جسد يشتاق الخطيئة..
تدعوني للبحث عن مناورات أخرى للحياة.. !
أوثق خداعها بماض تملأه الشقوق، والثقوب، تفوح روائحه كالمتطاير من جوف المقابر..
أطرد ذكراها من تحت أردية الصقيع.. تتوه ملامحها بين الحزم الضوئية المسلوبة من نصف القمر.. وتغيب......
فأعود ألملم ملامحها من على وجه الفراغ، ومن ذاكرة الشعراء.. كأنها طيف ساقط في أعماق وهمية.. أتوه بين طلاسمها، كأني أتدحرج فوق ظلال الأمواج، كأني ضوء يتمرغ في الظلام..
حتى رأيتها يوما.. ضعيفة..باكية.. علمت أن أحد عشاقها قد هجرها توا.. فامتطيت الانتقام.. دخلت سكنها.. مارست معها كل الخداع الذي تعلمته من حياتكم.. أسمعتها أجمل الأشعار حتى تأوهت نشوة، وحكيت لها الروايات حتى أسكرتها، ومارست معها فنون الهوى، علوت بها إلى ذرى الشهوة والاشتهاء.. ثم.... ثم تركتها تسقط وحيدة على فراش زوجها المخدوع في طهرها المزعوم..
وحين قالت لي (أحبك)، وأحسست صدقها.. قلت لها أني لا أحب العاهرات، الداعرات، الزانيات..
وتركتها تتلوى في حضن شاعر أبله وجدته مصادفة في طريقها..
ومضيت أبحث عن سرداب يدخلني إلى جبال الملح والظلام.. فقادتني الخطوات إلى هنا على سبيل الخطأ..

***

انتفض (الآخر) مذعورا..
- كأنك تحكي عن زينة.. ؟
- نعم.. زينة، زنا.. ألا ترى قوة التشابه.. وها هي أمامك.. تلك المرأة التي بدون ملامح.. هي زينة.. تخدعك للمرة الألف..
التفت إليها..
- أنت زينة.. ؟
هرعت إلى الكفن الذي تخبئ فيه ملامحها، ارتدتها سريعا، التصقت به، همست في أذنه..
- نعم.. أنا زينة.. أنظر إلى عيني..
- لماذا يا زينة.. لماذا ؟
- كنت أشتاق نقاء الحرف، طهارة النغم.. خدعوني......
- أنا لا أحبك يا زينة.. لا أحبك..
- أعلم.. فأنا امرأة لا تصلح للحب.. أنظر إلى عيني..
وتبكي، وتشهق بغصة البكاء الخادع.. ترتمي على صدره.. يحتويها بالشوق الذي كان يدخره طيلة عمره، تحتويه بصدر يمتلئ حرارة، واشتهاء..
أخرجت من جوفها نصف القمر، وضعته بدلا من ملامحه.. غابا في نشوة قبلة عاشقة.. اقتربا مني مبتسمان.. قال (الآخر)..
- سنعود للحياة.. نعرف طريقا إليها.. أتأتي معنا..
- لا.. أني أنتظر أن تخترقني اشراقة، تنبت في جوفي امرأة، أتمخضها، فأحبها.. إني أنتظر امرأة مني..
- إذن سنذهب نحن..
- لكنها تخدعك..
- أعلم.. أليست امرأة..
التف حولنا العازفون فجأة، قيدونا بأوتارهم الممزقة، حملونا، ألقوا بنا في جوف الكفن الأسود المفرد، المعلق على خطايا البشر....
- ....
- ....
- ....

تصمت الصرخات، الكلمات..
تختفي الأوهام، الأحلام، الأكفان..
لا يبقى في المكان سوى العازفين، بدون ملامح، بدون أوتار، بدون أغاني..
متخبطون في الفراغ، والصمت، والظلام.......